سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة

المُسْتَهْزِئُونَ فِي القُرْآنِ الكَرِيم

مِن سُخْرِيَّةِ الماضي إلى حَرْبِ الرُّمُوز

د . محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

المُستهزِئونَ في القرآن الكريم
من سخريّة الماضي إلى حرب الرُّموز

د. محمد محمود مرتضى

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة ٥

المُسْتَهْزِئُونَ في القُرآنِ الكَريم

مِن سُخْرِيَّة الماضي إلى حَرْبِ الرُّمُوز

د . محمد محمود مرتضى

مَركَزُ بَراثا للدِّراسَاتِ وَالبُحُوثِ
بَيروتُ - بَغدَادُ

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة

يَتخطّى النصُ القرآنيَ كَونَه أحد مَصَادر التشريع الإسلاميّ واستنباط الفتوى، مع التسليم بأهميّة هذا الدور؛ ولئن كان التراثُ التفسيريّ يُحاولُ تنزيل النصّ القرآنيّ على مُشكلات الواقع فَي منظورها الأوسع في مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة، إلا أنّنا في (مركز براثا للدراسات والبحوث) شخّصنا حاجةَ المجتمع الإسلاميّ إلى مستوى أعمق من الاتصال بعلوم القرآن، تبدأ من إشاعة الثقافة القرآنيّة كمنهجٍ معرفيّ وأسلوب حياة وطريقة تفكير، ومنْ ثَمّ قررنا تبيين المباني القرآنيّة لكلّ قضايا الفكر ومناحي الحياة في قِبال نظَيرتها الغربية الماديّة أو الالتقاطيّة.

نُحاولُ في هذه السلْسلة تطوير فهم المتلقي حول القرآن باعتباره كتاب هداية، وحاويًا على منهَج حياة ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾، وتوفير الأرضيّة التي من شأنها تعميق الدرس القرآنيّ، ونقد الدراسات الأخرى عن المعرفة، والإجابة عن الأسئلة الفكريّة والتحدّيات الاجتماعيّة التي تلحّ على العلماء انطلاقًا من أرضيّة القرآن؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا". وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "كتاب اللّه فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و فصل ما بينكم و نحن نعلمه."

ومن خلال (سلْسلَة الدِّراسات القرآنيّة) نفتحُ مساحةً للتثاقف العلميّ المُنصف والنقد البنّاء للرؤى الاستشراقيّة والغربيّة، ونحاول تقديم إجابات على الشبهات المطروحة، والتي أهمها شبهة أن القرآن نصٌّ تاريخي لم يعُد صالحًا لظروف العصر، فنثبت بالدّليل العلميّ وبالمصاديق العمليّة كلام أمير المؤمنين عليه السلام: "... وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق, لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلّا به».

مُقدِّمة

في كلِّ مُنعطَف، من مُنعطفاتِ التّاريخِ البشريّ، كانت الرِّسالاتُ الإلهيّةُ تَظهَرُ لتُعيدَ تَصويبَ المَسارِ وتُوقِظَ الوجدانَ من سباتِه الثَّقيل. وكانَ الأنبياءُ، وهم يَحملون مشعلَ الوَحي، يُواجِهونَ مقاومةً، منها ما هو بالسَّيفِ والعَصا، ومنها ما هو بالكلمةِ اللّاذعة، والضِّحكةِ الخَبيثة، والاستهزاءِ المُبطَّن، والنَّبرةِ السّاخرةِ التي تَسعى إلى خلعِ القَداسةِ عن الرُّموز، وتَشويهِ المَعنى بالتهكُّم، ونزعِ الهَيبةِ من وجهِ الحَقيقةِ عبرَ الضَّحكِ الجَماعيّ. وهكذا كانَ الاستهزاءُ من الأسلحةِ التي رُفِعت في مُواجهةِ الوَحي، بوَصفِه سُلوكًا نفسيًّا واجتماعيًّا مُعقَّدًا، يَحملُ داخلَه مَوقفًا رافضًا، وخَوفًا من التحوُّلِ، ونزعةً دفاعيّةً ضدَّ كلِّ ما يُهدِّدُ البِنى القائمة.

والقرآنُ الكريمُ، الذي هو النصُّ الإلهيُّ الخاتمُ، تحدَّثَ مُطوَّلًا عن ظاهرةِ الاستهزاءِ، وتَناولَها بعنايةٍ تَحليليّةٍ تكادُ تُحاكي دراسةَ الأنثروبولوجيِّينَ للسُّلوكِ الجمعيّ، أو تَشريحَ علماءِ النَّفسِ لآليّاتِ الدِّفاعِ العَقليّ؛ حيثُ

يتردَّدُ الاستهزاءُ في القرآن بصيغٍ مُتعدِّدة: "يَسخرونَ" و"يَستهزئونَ"، و"هُزُوًا"، و"سخريّة"، و"ضحكًا"، و"راعِنا"... وغيرها، ليَكشفَ أنَّ هذه الظّاهرةَ ليسَت طارئةً ولا ثانويّةً، بل تُعتبر أداةً مَركزيّةً في الصِّراعِ بين الحقِّ والباطلِ، والإيمانِ والإنكارِ، والرِّسالةِ والمجتمع الرّافض.

ولعلَّ من المُثيرِ أن نلحظَ أنَّ الاستهزاءَ، كما يُصوِّرُه النصُّ القرآنيُّ، تجاوزَ ردَّ الفعلِ الآنيّ على دَعوةٍ جديدة، وظهرَ في إطارِ استراتيجيّةٍ مُتكرِّرةٍ يَستخدمُها المُستكبِرونَ والمُترفونَ، والعوامُّ الخائفونَ من التَّغييرِ، والمُثقَّفونَ المُزيَّفونَ الذينَ لا يَملِكونَ حجّةً في وجهِ البرَاهينِ، فيَلجؤُونَ إلى الضَّحكِ والسُّخريّةِ على اعتبارهما وسيلةً تُغنيهم عن المُواجَهةِ الحَقيقيّة، وتَعمَلُ على تَفريغِ الحَقيقةِ من مضمونها وهالتِها، وقَتلِها وهي في طريقِها إلى الولادة.

ويَكشفُ التتبُّعُ الدَّقيقُ للآياتِ أنَّ السُّخريّةَ تَرتبط بالسِّياقاتِ الأخرى، كالبنيةِ النَّفسيّةِ للمُستهزئ، وطبيعةِ السُّلطةِ الاجتماعيّةِ التي تُحيط به، والموازينِ الثَّقافيّةِ السّائدة. والمُستهزِئُ يكونُ رُكنًا ضمنَ منظومةِ مُقاومةِ النبوّةِ، يتحدَّثُ باسمِ التيّارِ الذي يَرى في الدِّينِ خَطرًا على امتيازاتِه، أو تَشويشًا على روايتِه للعالَم.

وهذا الكتابُ يَتجاوزُ حُدودَ الدِّراسةِ اللُّغويّة، وحَصرَ الظّاهرةِ في الآياتِ القرآنية، ويَسعى إلى بناءِ رؤيةٍ شاملةٍ للاستهزاءِ بوَصفِه فعلًا رَمزيًّا في مواجهةِ المَشروعِ الإيمانيِّ، من خلالِ تَحليلِ بنيتِه النَّفسيّةِ

والاجتماعية، واستعراضِ تجلِّياته في قصصِ الأنبياء، والوقوف على أدواته وتقنيّاته، ثم الانتقال إلى دراسة الردِّ القرآنيِّ على هذا السُّلوك، وُصولاً إلى تأمُّلِ مظاهره المُعاصرة في فضاءات الإعلام والثَّقافة الرَّقميّة؛ حيثُ تحوَّلَ الاستهزاءُ إلى حربِ رموزٍ، تتقاطعُ فيها مصالحُ السِّياسة والاقتصاد وصناعة الوَعي.

وما يَجعل هذا المَشروعَ مُختلفًا أنَّه يَقرأُ المُستهزئَ بوَصفه فاعلاً ومُؤثِّرًا، يَستبطِنُ خوفَه في قالبٍ ساخرٍ، ويُتقِنُ تَحويلَ الرِّسالة إلى مادّة تهكُّم تُفرِّغُها من أثرها الرُّوحيّ.

نحنُ هنا نُدافعُ عن الحقِّ، ونَسعى لإظهاره، وفي الوقت ذاته نَعملُ على تَقديم فهمٍ عميق للآليّات التي تُستخدَمُ لتَقويضه رَمزيًّا. فالقرآنُ حين يَصِفُ كيفَ ضَحِكُوا من (نوح) عليه السلام، وهو يَصنعُ سفينتَه، أو كيفَ قالوا لـ (يعقوب) عليه السلام: ﴿**إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ**﴾ فهو يُسجِّلُ الواقعةَ، ويَدعونا لفَهم البنية العَميقة للعَقل المُستهزئ، الذي لا يَحتملُ الرَّمزَ، ويَخافُ من التحوُّل، ويَستخدِمُ الضَّحكَ باعتباره درعًا نفسيًّا ضدَّ التَّورُّط في التَّغيير.

وإذا نظرنا بعينِ التأمُّل فسنجدُ أنَّ ظاهرةَ الاستهزاء لم تَنتهِ بانتهاء الجاهليّة الأولى، وإنَّما تطوَّرَت وارتدَت أثوابًا جديدةً، واتَّخذَت وسائلَ مُعاصرةً أكثرَ فاعليّةً. فالكاريكاتير، والمشهدُ المسرحيُّ، والمسلسلُ التلفزيونيُّ، والتَّغريدةُ السّاخرةُ، والميم المُنتشِرُ، باتَت كلُّها أدواتٍ

مُعاصرةً لحربٍ رمزيّةٍ واسعةٍ ضدَّ الدِّينِ ومُقدَّساته، أصبَحَت تُخاضُ بالكلماتِ والصُّورِ والضَّحكاتِ، فلا بدَّ من مواجهتِها بالفَهمِ أوَّلًا، ثم بالتَّخطيطِ والتَّربيةِ على الوعي الرَّمزيّ.

ومن هذا المُنطلَقِ، يَنقسمُ هذا الكتابُ إلى سبعةِ فصولٍ رئيسةٍ، تُمثِّلُ محاورَ مُختلفةً لفَهمِ الظّاهرة:

يَبدأُ الفصلُ الأوَّلُ بتَحليلِ المَفهومِ القرآنيِّ للاستهزاءِ؛ من حيثُ اللُّغة والدّلالة والسِّياقات التي وردَ فيها، لنَكشفَ كيفَ أنَّ القرآنَ لا يَنظُرُ إلى السُّخريّةِ بوَصفِها فعلاً تافهًا، وإنَّما يَراها مُؤشِّرًا على خللٍ عميقٍ في النَّفسِ والمجتمعِ. ثم نَنتقِلُ في الفصل الثاني إلى تحليلِ البنيةِ النَّفسيّةِ للمُستهزئ: من الاستكبار، إلى الخوف من زوالِ الامتيازِ، إلى العُقدِ الدّاخليّةِ التي تَدفعُ الإنسانَ للتَّهكُّمِ بدلَ التأمُّلِ.

أمّا الفصلُ الثّالثُ، فيَغوصُ في قصص الأنبياءِ ليَقرأ المشهدَ السّاخرَ في زمن النبوّةِ، بوَصفه نمَطًا مُتكرِّرًا من الرَّفضِ المُغلَّفِ بالضَّحكِ، لنَفهمَ كيفَ كانت السُّخريّةُ أداةً للإنكار الجماعيّ، لا للرَّفض الفرديِّ فقط. ثم يأتي الفصلُ الرّابعُ ليَستعرِضَ أدواتِ الاستهزاءِ، من السُّخريّةِ الجسديّةِ إلى اللَّعبِ بالكلمات، ومن التهكُّمِ العلنيّ إلى تَحويرِ المُفرداتِ المُقدَّسة.

وفي الفصل الخامس، نتوقَّفُ عندَ ردِّ القرآنِ الكريمِ على المُستهزئينَ، بمَنطقِ التَّثبيتِ والتَّعالي والصَّبر والبرُهان. يتجلَّى هنا البُعدُ التَّربويُّ

والرُّوحيُّ في تعامُلِ الرِّسالةِ مع هذا السُّلوكِ، دونَ انفعالٍ، وبحِكمةٍ راسخة. أمّا الفصلُ السّادسُ، فيَكشفُ عن الوَظيفةِ الأعمَقِ للاستهزاءِ، وهي تَقويضُ الرَّمزِ، وتَفريغُ المَعنى من مُحتواهُ، وتَحويلُ الإيمانِ إلى مادة للسُّخريّةِ الجماعيّة، وهذا يجعلُ الاستهزاءَ جزءًا من منظومةِ الإفسادِ الرَّمزيّ التي حذَّرَ منها القرآنُ.

وأخيرًا، في الفصل السّابع، نُواجِهُ المعركةَ المُعاصِرةَ: السُّخريّة من الدِّين في الإعلام، وفي وسائل التَّواصُلِ، وفي الثَّقافة السّاخرة، حيثُ لا يَعلو صوتٌ على صوتِ التَّهكُّمِ المُنظَّم. نطرحُ هنا تساؤلاتٍ عن السُّخريّة المُمنهَجة، وكيف تُوظَّفُ أداةَ هَيمنةٍ ثقافيّة، وعن السُّبُلِ التي يُمكِنُ أن نُواجهَ بها هذا النَّمطَ، دونَ الوقوعِ في رُدودِ فعلٍ انفعاليّة أو انسحابيّة.

إنَّ هذا الكتابَ هو محاولةٌ لاستعادةِ الوَعي الرَّمزيّ بالدِّين، في زمنٍ باتَ فيه الضَّحكُ أداةً للتَّفكيك، والسُّخريّةُ وسيلةً للهَيمنة. وهو دعوةٌ لفَهمِ المُستهزِئ، لا بوَصفه عَدوًّا فقط، بل بوَصفه كائنًا مأزومًا، وخائفًا من المَعنى، يَحتمي بالسُّخريّة؛ لأنَّه يَفتقِرُ إلى الشَّجاعة اللّازمةِ للنَّظرِ في وجهِ الحَقيقة.

ولعلَّ من اللّافتِ -في هذا السِّياق- أنَّ المُستهزِئَ في القرآنِ يُوصَف بخفّةِ العقلِ أو قِلّةِ الإيمانَ، وغالبًا ما يُوصَفُ بارتباطِه بالمكرِ، والتَّحايُلِ، والسَّعي لتَشويهِ الرَّمزِ الإيمانيّ، من الخارجِ والدّاخل. فحينَ يَقول أحدُهم للنَّبيّ ﷺ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ**

﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فهو يُقِرُّ بنُزول الذِّكر، لكنَّه في الوقت ذاته يَطعَنُ بشخصيّة النبيِّ ﷺ، وهنا تتجلَّى عَبقريّةُ الخطابِ السّاخرِ: الاعتراف المُشوَّه الذي يَقتل الشَّيءَ بالتَّصديق السّاخر.

هذه المُستوياتُ المُعقَّدةُ من التهكُّم، التي يَكشف عنها القرآنُ بدِقّةٍ، تُرينا أنَّ المَعركةَ معَ المُستهزئينَ هي معركةٌ رَمزيّةٌ، تَحتاج إلى وعيٍ بالتأويلِ، وإدراكٍ أبعادِ الخطابِ، وتربيةٍ على التَّمييزِ بينَ الضَّحكِ البَريءِ، والضَّحكِ المَسموم.

ونحنُ إذ نخوض هذا البحثَ، لا نَسعى لتكريسِ نظرةٍ عدائيّةٍ تُجاهَ كلِّ سُخريّة، فالضَّحكُ جزءٌ من الحياة، والرُّوحُ السّاخرةُ قد تكون صحيّةً حينَ تتوجَّهُ نحوَ الطُّغيان أو الفَساد. لكنَّ السُّخريّةَ التي نتأمَّلُها هنا هي تلك التي تُستخدَمُ لهَدمِ الإيمان، وتَشويهِ النُّبوّة، وتَحطيمِ القَداسة، وتَحويلِ الدِّينِ إلى مادّة للتهكُّم. تلك السُّخريّةُ التي تُحطِّمُ ولا تُحرِّرُ، وتَضلِّلُ ولا تُبصِّرُ، فضلاً عن أنَّها تَزرعُ الوَهمَ في فِكرِ الإنسانِ ومشاعره.

من هنا، فإنَّ هذا المشروعَ يَصبُّ في محاولةِ فَهمِ ما مَضى، وهو أيضًا دعوةٌ للمؤمنينَ اليومَ أن يُدركوا أنَّ المعركةَ قد تغيَّرَت أدواتُها، وأنَّ المُستهزئينَ ما يزالون حاضرينَ، وقد لَبسوا وجوهًا جديدةً، وامتلكوا منابرَ أكثرَ اتِّساعًا، وأنَّ الردَّ على سخريّةِ العَصرِ الحديثِ يَبدأُ من الوَعي والفَهمِ والثَّباتِ، وبناءِ الهَيبةِ الرَّمزيّةِ للدِّينِ، لا من الارتباك والانفعال وممارسةِ القمعِ والتَّخويف.

وتجدر الإشارة إلى أنَّنا كلّما استعملنا مفردة "رمز" في هذا البحث، فإنَّنا نقصد بها: الصُّورة أو الشخصيَّة أو الكلمة التي تحمل دلالة غير مباشرة تربط بين الظاهر والباطن، وتدعونا لتأمُّل أعمق في المعنى؛ فالنَّار -على سبيل المثال- تمُثِّل دلالة قرآنيَّة على العذاب الإلهيِّ، و(فرعون) في دلالته الرمزيَّة رمز للاستكبار، ويمُثّل النموذج التكوينيِّ للطُّغيان. ويمُثّل الميزان رمزيًّا عنصرًا مركزيًّا في بناء مفهوم العدل القرآنيِّ، وهكذا....

الفصل الأوَّل:

مفهوم الاستهزاء في النصِّ القرآنيّ

■ المبحث الأوَّل:
المعنى اللُّغويّ والقرآنيّ للاستهزاء

في مدخل هذا البحث، لا بدَّ أن نُؤسِّسَ للظّاهرة من جُذورها اللُّغويّة والدَّلاليّة، آخذينَ بالاعتبار أنَّ كلَّ ظاهرةٍ في النصِّ القرآنيِّ تتغذَّى بشَبكة معان ضاربة في عُمق اللُّغة والتّاريخ الثَّقافيِّ للمجتمع الذي نزلَ فيه القرآنُ. وأنَّ اللَّفظَ في النصِّ القرآنيِّ هو كائنٌ حيٌّ يَختزنُ خلفَه تصوُّرات وتمَثيلات حضاريّةً، وهو ما يَنطبقُ على مفهوم «الاستهزاء» الذي يُكوّنُ رَكيزةً مُهمّةً في هذا الكتاب، بوَصفِه تَعبيراً عن حالة مُقاومة رمزيّة للخطاب الإيمانيِّ.

وقد جاء الجذرُ الثُّلاثيُّ (هـ ز أ) في معاجم اللُّغة بدَلالات تَلتقي عندَ مَعنى السُّخريّة والتنقُّص والإهانة المُبطَّنة بالضَّحك أو التَّلميح. يقول (ابن منظور) في "لسان العرب": "الهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخريّةُ، وقد هَزَأ به يَهْزَأ هُزُؤًا وهُزْءًا. والهُزْءُ أن تُظهِرَ من القولِ ما تُريدُ به غيرَه، تُريدُ بذلكَ

السُّخريّةَ". (ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، مادة "هزأ"، باب الهمزة). ويُضيفُ (الزَّبيديُّ) في "تاج العروس": "الهُزْءُ والهُزُؤُ، بالكَسر والضمِّ، ما يُقصَدُ به إظهارُ السُّخريّةِ والتهكُّم، وقد يكونُ باللَّفظِ أو بالإشارة، ويكونُ غالبًا على وجهِ الاستخفافِ". (الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة محققين، دار الهداية، الطبعة الأولى، القاهرة، مادة "هزأ"، باب الهمزة).

ويتَّضحُ من هذَين التَّعريفَين أنَّ الهُزْءَ يكونُ من حيثُ الظّاهر بالضَّحكِ أو المزاحِ، لكنَّه يتضمَّنُ نيّةً خفيّةً في التَّحقيرِ الرَّمزيّ والإنقاصِ من القَدرِ، وهذا يَجعلُه فعلاً ذا بنيةٍ أخلاقيّة ودلاليّة ثَقيلة.

وليس من الغَريب، أن يَستعمل القرآنُ هذا المفَهومَ في سياقاتٍ دقيقةٍ ومحوريّة، غالبًا ما تتعلَّقُ بالمَوقفِ من النبوّةِ والوَحي والحَقائقِ الغَيبيّةِ الكُبرى. فالاستهزاءُ في القرآنِ يَتجاوزُ حدودَ التَّعبيرِ عن السّخطِ أو الغضبِ أو الجهلِ، ويَبدو خطابَ مقاومةٍ رَمزيٍّ، يَستخدمُ أدواتِ التهكُّمِ لتَقويضِ الهَيبةِ المَعنويّة للنَّصّ الإلهيِّ، أو لشخصيّةِ النبيِّ، أو لفعلِ الإيمانِ ذاته. ففي قوله -تعالى-: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ**﴾ [الحجر: ٩٥]، تتجلَّى خطورةُ هذا الفعلِ، حينَ يُقرَّرُ له وعدٌ بالحمايةِ الإلهيّة، كأنَّ الاستهزاءَ يَبلغُ من التَّهديدِ للرِّسالةِ مَبلغًا يَستدعي التدخُّلَ من العِنايةِ الإلهيّة.

ويَبدو أنَّ دلالةَ "الاستهزاء" في البناءِ القرآنيِّ تَتجاوزُ المَفهومَ القاموسيَّ المُجرَّدَ، لتكوّن نمَطًا من العُدوانِ الرَّمزيّ المُنظَّم، الذي يُمارَس في العَلنِ أو الإيحاء، بالصَّوت أو بالإيماءة، بالكلمةِ أو بالتَّلميح، ضدَّ الرِّسالة والمُحتوى الإيمانيِّ الذي تَحملُه. في هذا السِّياق، يُصبحُ الضَّحكُ وسيلةً للرَّفضِ، والطرفةُ أداةً لزَعزعةِ الثِّقة، والغَمزُ واللَّمزُ أسلوبًا لتَقويضِ الأثرِ المَعنويِّ للنبوّةِ في الوَعي الجَمعيّ.

وقد تكرَّرَت مُفرداتٌ مثل: "يَستهزئونَ"، و"سَخِرُوا"، و"ضَحِكُوا"، و"هُزُوًا"، و"فَكِهينَ"، و"يَتغامَزونَ"، في عشراتِ الآياتِ التي تتحدَّثُ عن استقبالِ النّاسِ للرُّسلِ والكتبِ السَّماويّة، وبهذا فالسُّخريّةُ ظاهرةٌ تتكرَّرُ كلَّما نزلَ وَحيٌ جديدٌ. في سورة المُطفِّفينَ، يُصوِّرُ القرآنُ مَشهدًا سوسيولوجيًّا عَميقًا للاستعلاءِ والاستهزاء، حينَ يقول: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٨ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]؛ حيثُ تُرسَمُ خريطةُ المَشاعرِ الجَمعيّةِ التي تَنتشي بالاستهزاء، وتُحوِّل الإيمانَ إلى مادّةٍ تَندُّر.

وفي موضعٍ آخَرَ، يَربطُ القرآنُ بين الكفرِ والاستهزاءِ رَبطًا وثيقًا، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ**﴾ [الأنعام: ١٠]، لتأكيدِ أنَّ هذه الظّاهرةَ مُتكرِّرةٌ في كلِّ دَعوةٍ تَوحيديّة. وهنا، لا يَتعامَلُ النصُّ مع الاستهزاءِ على أنَّه مَوقفٌ بسيطٌ أو ثانويٌّ، وإنَّما يُصوِّرُه على أنَّه نوعٌ من

العُنف المَعنويِّ المُوجَّه ضدَّ الوَحي، بوَصفه أشدَّ وَقعًا من التَّكذيب الظّاهريِّ؛ لأنَّه يَستخدمُ الأسلوبَ التهكُّميَّ لهَدم الدَّعوة، وإفراغها من وَقارها الرَّمزيّ.

والقرآنُ في مُعالجته لظاهرة الاستهزاء يُقدِّمُ تَحليلاً دَقيقًا للبنية النَّفسيّة للمُستهزئ، التي كثيراً ما تَرتبطُ بالكبر والتَّعالي والمكر، كما في قوله: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولا**﴾ [الفرقان: ٤١]؛ حيثُ تتجسَّدُ السُّخريّةُ في قالب تَعجُّبيٍّ يَحملُ احتقارًا للمَقام النَّبويّ، فالمُستهزئونَ يَتنحَّونَ عن مهاجمة الرِّسالة بحُجّة عقليّة، ويقومونَ بدلاً من المواجهة الصَّريحة بالضَّحك على شَكلها، وعلى حامِلها، وعلى طريقتها في الدُّخول إلى المَشهد.

وفي بعض المَواضع، يُستعمَلُ مَفهومُ الاستهزاء لوَصف ما هو أعمقُ من السُّخريّة الظّاهرة، ليُعبرَّ عن موقف وجوديٍّ من النصِّ المُقدَّس، كما في آية البقرة عن بني إسرائيل: ﴿**قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧]؛ حيثُ يتحوَّلُ طلبٌ إلهيٌّ إلى مادّة للسُّخريّة، كأنَّ الاستهزاءَ هنا هو رفضٌ للامتثال، مُغلَّفٌ بالضَّحك، وليسَ رفضًا للعَقلانيّة. وهذا ما يَجعلُ من الهُزء سُلوكًا رَمزيًّا يمُارَس في وجه الالتزام، لأنَّه يُهدِّدُ بنيةَ الرّاحة الدّاخليّة التي تَشعرُ بالحَرج من الحَقيقة. ويَبلغُ التعمُّقُ القرآنيُّ ذروتَه حينَ يَستخدم الله تعالى الفعلَ ذاتَه في صيغة المُعاقَبة، كما في قوله: ﴿**ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ**

﴿بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، وهنا لا يكون الاستهزاءُ من الله كالاستهزاءِ من البَشر، وإنَّما هو قلبٌ رمزيٌّ للمَشهد، بحيثُ تَنقلبُ خطّتُهم السّاخرةُ عليهم، ويُصبحُ عبثُهم بابًا لهلاكِهم. فـ«استهزاءُ الله» هو استعارةٌ قرآنيّةٌ تُشيرُ إلى أنَّ الاستهزاءَ البشريَّ الذي أرادوا به التَّحقيرَ، سيَؤول إلى السُّخريّةِ منهم في الدُّنيا أو الآخرة، من خلالِ فَضيحتِهم أو عذابِهم أو انكشافِهم الرَّمزيِّ.

وممّا يَزيدُ خطورةَ هذا الفعلِ أنَّ القرآنَ كما يَربطُه بالمُكذِّبينَ، يُدرِجُ تحتَه المنافقينَ، وبعضَ أهلِ الكتاب، وحتى بعضَ المُؤمنينَ الضُّعفاءَ الذين انزلقوا إلى خطاب التهكُّم. وكأنَّ "الاستهزاءَ" هو امتحانٌ دقيقٌ للنيّةِ والبَصيرة، لا مُجرَّدُ علامةٍ على الانتماء. والقرآنُ قد يُقدِّمُ الاستهزاءَ على أنَّه فعلٌ فرديٌّ عابرٌ، لكنَّه في الغالب يُصوِّرُه بوَصفه "ثقافةً" جماعيّةً تَنمو في مجالس السَّمر، وفي أماكنِ العَبث، وفي أوساطِ المُترَفينَ الذين يَجدون في الضَّحكِ وسيلةً لتَكريسِ الاستعلاء، وكأنَّهم يَقولون: إنَّ الذي لا نَقدرُ على دَحضه بالعَقلِ، نقدرُ على قَتله بالضَّحك.

إنَّ هذا العُمقَ الدَّلاليَّ يَجعلُ من "الاستهزاء" مَوضوعًا جوهريًّا في بناء الوَعي القرآنيِّ، باعتباره سُلوكًا رمزيًّا في الصِّراعِ بينَ الإيمانِ والتَّكذيب، بينَ القداسةِ والانحلال، بينَ الكلمةِ الهاديةِ والكلمةِ العابثة. إنَّه موقفٌ وجوديٌّ قبلَ أن يكونَ فِعلًا لفظيًّا، وخطابُ مُقاومةٍ رمزيّةٍ قبلَ أن يكون زلّةَ لسانٍ.

■ المبحث الثاني:
الاستهزاءُ بوَصفِه آليةَ رفضٍ رمزيّة

لا يَكفي أن نَقرأ الاستهزاءَ في القرآن بوَصفه فعلاً سُلوكيًّا، يَصدرُ عن غضبٍ أو استعلاءٍ لَحظيٍّ، وإنَّما الواجبُ أن نُفكِّكَ بنيتَه بوَصفه مَنظومةً رَمزيّةً متكاملة، تمُثِّلُ وجهًا من وجوه المُقاوَمة النَّفسيّة والثَّقافيّة للحقِّ حين يَهبطُ من السَّماء إلى الأرض. فالإنسانُ لا يَسخرُ من فَراغٍ، ولا يَستهزئُ بوَحيٍ دونَ أن يَشعرَ في داخله بتَهديدٍ ما. وهذا التَّهديدُ قد يتجاوزُ مستوى المَصلحة الظّاهرة، ويكون تَهديدًا لبنيةٍ رمزيّةٍ مُستقرّةٍ في الذِّهن، أو للمَعنى الذي نشأ عليه، أو للرُّؤية التي اعتادَ أن يَرى بها نفسَه والعالَمَ.

ولهذا، فإنَّ الاستهزاءَ في القرآن إنَّما يُقدَّمُ بوَصفه آليّةَ رفضٍ رمزيّةً، تُستخدَمُ لتَقويض الخطاب الإيمانيِّ قبلَ أن يَستقرَّ في النُّفوس. فالحقُّ حينَ يَظهَرُ، يُواجَه بالسَّيف، كما يُواجَهُ أيضًا بالطّرفة والكلمة العابثة والصَّوت المُتعالي.

فالاستهزاءُ، في المَنظور القرآنيِّ، يَتجاوزُ حدودَ "الرأي السّاخر"، كما هو شائعٌ في السِّياق المُعاصر، ويَظهَرُ على أنَّه موقفٌ استباقيٌّ مُناهضٌ للرَّمزيّة الدِّينيّة، يَشتغلُ على إبطال الأثر، عبرَ كَسر الهَيبة الرَّمزيّة للخطاب. فحينَ يَضحكُ قومُ نوحٍ منه، وهو يَصنع السَّفينةَ:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ [هود: ٣٨]، فإنَّهم يُطلقونَ السُّخريّةَ لتَفريغِ الفعلِ من رمزيّته النبويّة، وتَحويله إلى مشهدٍ عَبثيٍّ في نظرِ المجتمع. إنَّ السَّفينةَ هنا هيَ رمزٌ للنَّجاة، وللسَّفرِ الإيمانيِّ، وللثِّقة بالوعدِ الإلهيِّ في عالَمٍ لم تُمطِرْ سماؤُه بعدُ. والسُّخريّةُ هي مُحاولتُهم قتلَ هذا الرَّمزِ قبلَ أن يُصدِّقَه النّاسُ.

إنَّ أخطرَ ما في السُّخريّة، في هذا السِّياق، أنَّها تُفسدُ الفكرةَ وتُحرِّفُ مَعناها رَمزيًّا دونَ أن تَنقضَه كُلِّيًّا. فلا أحدَ من مُستهزئي قومِ فرعونَ قال: "موسى يُخطئُ في مَنطقه"، وكلُّهُم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؟ [المؤمنون: ٤٧]. وهنا تتحوَّلُ الرِّسالةُ من خطاب يَحمل مشروعيّةَ الغَيبِ، إلى لُعبةٍ في يدِ التَّراتُبيّة الاجتماعيّة: كيفَ يُؤمِنُ الأغنياءُ لكائنٍ من طبقةِ الخدم؟ إنَّها سُخريّةُ الطَّبقيِّ من المُرسَلِ، لا من الرِّسالة، لكنَّها سُخريّةٌ تَهدمُ المَعنى الرِّساليَّ في لا وَعي الجمهور. فالهدفُ من السُّخريّةِ في هذا الموضعِ تَحقيرُ (مُوسى) عليه السلام، وتَحقيرُ فكرة أن يكونَ للحقِّ صوتٌ يَخرجُ من طبقةٍ «أدنى» اجتماعيًّا.

وفي مواضعَ أخرى، تتجلَّى السُّخريّةُ بوَصفِها إلغاءً مُقنَّعًا للمَعنى، دونَ الحاجة إلى تَفنيدٍ عقلانيٍّ. ففي سورة الفرقان، حينَ يُواجَهُ (النبيُّ محمدٌ) ﷺ بقولِهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ [الفرقان: ٤١]، بل نجدُ هذا القَولَ يَحمل إنكارًا صَريحًا للبعثةِ، بقدرِ ما يَحمل

استغرابًا تهكُّميًّا يُرادُ به تَحطيمُ القيمةِ الرَّمزيّةِ للمَقامِ النَّبويّ. فالكلمةُ فيها تَعبيرٌ عن شَكٍّ، ورَفضٌ مُستترٌ خلفَ ستارٍ من التعجُّبِ السّاخرِ، وهذا أشدُّ فَتكًا من الجحودِ العَلنيّ؛ لأنَّه يُمرِّرُ الرَّفضَ في قالبٍ لغويٍّ مألوفٍ، فيَتسلَّلُ إلى العُقولِ دونَ استنفارٍ دفاعيّ.

إنَّ هذه البنيةَ الاستهزائيّةَ تَحمل داخلَها وظيفةً رَمزيّةً دقيقة: منع التَّفاعل معَ الرَّمز من خلال تَحقيرِه قبلَ إدراك مَعناه. فالاستهزاءُ هو مَنعٌ من الانجذابِ إلى الرَّمزِ، وليسَ ضَحكًا من نَتيجةٍ. إنَّه حاجزٌ نفسيٌّ تُقيمُه النَّفسُ المُتكبِّرةُ أو الخائفةُ، حتى لا تضطرَّ للانقيادِ أو للإصغاءِ. وفي هذا يَتقاطعُ الاستهزاءُ مع المكرِ، ومعَ الكِبرِ، ومعَ الإنكارِ المُستترِ؛ لأنَّه سعيٌ لصَرفِ النّاسِ عن قبولِ الحقِّ، يَتجاوزُ الامتناعَ الشَّخصيَّ.

ولذلك، فإنَّ القرآنَ حينَ يَصِفُ حالَ المُجرمينَ الذينَ يَضحكونَ من المؤمنينَ، ويَغمزونَهم، ثم يَعودونَ إلى أهلِهم فَكِهينَ، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٨ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، فإنَّه يَصِفُ حالةَ تعبئةٍ نفسيّةٍ رَمزيّةٍ مُضادّةٍ للإيمان، وليسَ مُجرَّدَ سُلوكٍ مُنعزلٍ. فهؤلاءِ يَتجاوزونَ الرَّفضَ الدّاخليَّ، ويُصدِّرونَ سُخريّتَهم إلى المجتمعِ بوَصفِها مَوقفًا، وهويّةً رمزيّةً مُضادّة. إنَّهم يُمارسونَ الاستهزاءَ ليُفسِدُوا وعيَ غيرِهم، فيتحوَّلُ الضَّحكُ إلى عَدوى، والتهكُّمُ إلى قاعدة، والقداسةُ إلى طرفة.

ومن الجديرِ بالذِّكر أنَّ القرآنَ قابَلَ هذا النَّمطَ الاستهزائيَّ بالثَّباتِ

والتَّعالي المَعرفيّ، كما في قوله: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٦٠]، في مَعرضِ الردِّ على استهزاءِ بعضِ أهلِ الكتابِ بالمُؤمنينَ. ومن الواضح أنَّ الردَّ هنا يتخطَّى الانفعال، ويقومُ على قلبِ المعادلة الرَّمزيّة: أنتم تَستهزئونَ، لكنَّكُم -في ميزان الغَيبِ- موضعَ غضبٍ إلهيٍّ، أي أنَّ السُّخريّةَ التي تَظنُّونَها عُلوًّا هي في الحقيقة إخفاءٌ لانحدارٍ باطنيٍّ لا تَرَونَه.

وهكذا، تتكشَّفُ لنا طبقاتٌ مُتعدِّدةٌ في فَهمِ الاستهزاءِ بوَصفِه آليّةً رمزيّةً مُضادّةً للحقِّ:

- فهو في أحدِ مُستوياته رَفضٌ مُموَّهٌ للامتثال
- وفي مستوًى آخرَ تَحصينٌ للذّاتِ أمامَ خطابٍ يُهدِّدُ ثَباتَها القَديم
- وفي مستوًى ثالثٍ نمطٌ لتَفريغِ الرَّمزِ من مَعناهُ، عبرَ مَنعِه من التسرُّبِ إلى وجدانِ المُتلقِّي

ولذلك، فإنَّ التهكُّمَ -في مَنطقِ القرآن- هو سلاحٌ رمزيٌّ يُستخدَمُ لِهَدمِ البِنى القُدسيّة الجديدة، وللحفاظِ على رمزيّة الثَّقافة القَديمة، ولضمانِ استمرارِ الامتيازاتِ التي كانَت تَمنحُها الأنساقُ المُنهارةُ قبلَ مَجيءِ الحقِّ. فكما أنَّ السَّيفَ يَحمي المَمالِكَ، فإنَّ الاستهزاءَ يَحمي

"المَعانيَ" القديمةَ، أو بَقايا النِّظامِ الثَّقافيّ الذي جاءَت النبوّةُ لهَدمه.
لهذا كلِّه، فإنَّ الاستهزاءَ في القرآن يتجاوزُ كونَه زلّةً خُلُقيّةً، ويُتعامَلُ معَه على أنَّه أداةٌ أيديولوجيّةٌ فعّالةٌ في مقاومة الوَحي، لا تقلُّ خَطرًا عن القَتلِ أو الكُفرِ الصَّريحِ، ورُبَّما كانَت أخطَرَ من ذلك؛ لأنَّها تَضربُ في عُمقِ الصُّورة الرَّمزيّة التي يَبنيها الوَحيُ في النُّفوس، وتُفسدُ الأثرَ قبلَ أن يَستقرَّ. إنَّها مقاومةٌ في الجَوهرِ والصَّميمِ، تُخفي إنكارًا عَميقًا للحقِّ، لكنَّها تُلبسُه لباسَ التَّسلية.

■ المبحث الثالث:
الاستهزاءُ بوَصفِه خطابًا مُضادًّا للوَحي

حين نتأمَّلُ خطابَ المُستهزئينَ، كما عرضَه النصُّ القرآنيُّ، لا نَرى أمامَنا مُجرَّدَ ضَحكات مُتفرِّقة، أو كلمات تَنفلتُ من أناسٍ مُستخفِّينَ، وإنَّما نَرى نظامًا رمزيًّا مُنظَّمًا لمُقاومة الوَحي، يَتجاوزُ التهكُّمَ الفرديَّ إلى ما يُشبهُ «الخطابَ المُضادَّ» الذي يُنتِجُ، في مواجهة الخطاب النَّبويِّ، روايةً بديلةً عن الوجود والمَعنى والهَيبة. وبهذا المَعنى، فإنَّ الاستهزاءَ يَظهر في القرآن في صورة مَنظومة لغويّة وثقافيّة تُحاولُ سحبَ البساط من تحت الرِّسالة الجديدة، عبرَ التَّشويهِ الرَّمزيِّ المُبطَّنِ بالسُّخريّة، وليسَ بالحُجّةِ والدَّليلِ.

فالخطابُ النبويُّ يأتي دائمًا مُحمَّلاً بثِقَلِ الغَيبِ، وبسُلطةِ الإطلاقِ، وبوَعدِ التَّغييرِ الجَذريِّ للبنيةِ الفرديّةِ والجَماعيّةِ معًا. وهذا النَّوعُ من الخطابِ لا يمَرُّ دون مُقاومةٍ، خُصوصًا من القُوى الثَّقافيّةِ والاجتماعيّةِ التي بَنتْ حضورَها على أُسُسٍ باليةٍ. وهنا يَظهر خطابُ الاستهزاءِ، بوَصفِه محاولةً لإنتاجِ ردٍّ رمزيٍّ على الخطاب النبويّ، باستخدام ما لَدى المجتمعِ من مَخزونٍ لُغويٍّ ومَواقفَ وأمزجةٍ تَميلُ إلى التَّهوينِ، والتَّقليلِ، والتَّشويش.

يُلاحَظُ في النصِّ القرآنيِّ أنَّ خطابَ المُستهزئينَ يُكرِّرُ صيغًا وعباراتٍ مُتقاربةً في كلِّ أزمنةِ النُّبوّة، كأنَّ هناكَ وحدةً بنيويّةً لهذا الخطابِ، من قومِ (نوحٍ) إلى (قريش)، ومن (فرعونَ) إلى (بَني إسرائيل). ففي كلِّ هذه السِّياقات، نَقرأ عباراتٍ تُفرِّغُ الوَحيَ من مَهابته: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولا**﴾؟ [الفرقان: ٤١]، ﴿**إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الشعراء: ٢٧]، ﴿**فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٠]، ﴿**أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا**﴾ [ص: ٨]. هذه الصِّيغُ لا تُقدِّمُ نَقدًا عَقلانيًّا، وإنَّما تُشيعُ جَوًّا من التهكُّمِ القائمِ على استغرابِ الظّاهرةِ النبويّةِ، وتَقويضِها من خلالِ تَسفيهِ حاملِها أو استغرابِ خِطابه.

واللافتُ للنَّظرِ أنَّ هذه العباراتِ تملك وَظيفةً مُزدوجةً: فهي من جهةٍ

تُطَمئِنُ المُستهزِئَ، وتُشعِرُه بأنَّه مُحصَّنٌ من التأثُّر، ومن جهة ثانية تُربِكُ السّامعَ المُتردِّدَ، وتمنَعُه من التَّفاعل الإيجابيّ مع النبوّة؛ لأنَّه شُحِنَ نفسيًّا ضدَّها عبرَ السُّخريّة. فالاستقبالُ الجماعيُّ لأيِّ فكرةٍ يَعتمدُ جزئيًّا على "الانطباع الرَّمزيّ" الذي تَتركُه، وخطابُ المُستهزِئ يَشتغِلُ بدِقّة على تَشويهِ هذا الانطباعِ قبلَ أن يَستقرَّ في القلب.

ولذلكَ فإنَّ خطابَ المُستهزِئ يَعملُ بكاملِ أدواته:

- يَبدأُ بالسُّخريّة من الشَّخص: شكلِه، وطبقتِه، وتاريخِه.
- ثمَّ يَنتقِلُ إلى النَّص: غرابتِه، ولغتِه، وتكراره.
- ثمَّ يتوسَّعُ إلى اليوم الآخِر: ﴿**أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٢].
- ثمَّ يَنتهي بالسُّخريّة من أتباعِ النبيِّ أنفسِهم؛ باعتبارِهم ضُعفاءَ، وسُفهاءَ، و"شرارَ النّاس".

إنَّه خطابٌ شاملٌ، يَسعى إلى نسفِ كلِّ المَفاصلِ التي يَقومُ عليها البناءُ الإيمانيُّ: الشَّخص، والنَّص، والغَيب، والجماعة. وهذا ما يَجعلُنا نُعيدُ تَقويمَ الاستهزاءِ بوَصفِه "منظومةَ مقاومةٍ" قائمةً بذاتِها، وفاعلةً في الوَعي العامِّ، وليسَ مجرَّدَ حَدَثٍ عَرَضيّ.

وقد عبَّرَ القرآنُ عن هذه المنظومةِ بوضوحٍ حين قال: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ [القلم: ١٥]، فهُنا يتعاملُ المستهزِئُ معَ النصِّ الإلهيِّ بوَصفِه سَرديّةً قديمةً، ومُكرَّرةً، لا مَعنى لها. وبهذه

الكلمة البَسيطة، يُفرِّغُ المُستهزئُ النصَّ من قُدسيّته، ويَضعُه في خانة القصَصِ الشَّعبيّة، فيَضعُفُ أثرُه الرَّمزيُّ. وهذا هو جوهرُ خطاب الاستهزاء: إبطال المَعنى دون الحاجة لمُواجهته.

وفي مثال آخَرَ، حينَ يَطلبُ المشركونَ آياتٍ ماديّةً ليُؤمِنُوا، يَقولونَ: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا**﴾ [الإسراء: ٩٠]، ثُمَّ يَسردونَ قائمةً من الطَّلبات المُستحيلة، فيَطلبونَ قَصرًا، أو جنّةً، أو كتابًا من السَّماء، أو مَلَكًا. هذه المَطالبُ ليسَت حَقيقيّةً، وتأتي في سياق ساخرٍ، والغايةُ منها إظهارُ أنَّ الخطابَ النبويَّ عاجزٌ عن الإقناع، كأنَّهم يُعاملونَه على طريقة المَسرحيّات؛ حيثُ يَطلبُ الجمهورُ من المُمثِّل ما لا يَقدرُ عليه، ليَضحَكَ من فشله. ولذلك ردَّ القرآنُ عليهم: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**﴾؟ [الإسراء: ٩٣]، ليَكشِفَ عَبثيّةَ طَلباتهم.

من هنا نَفهم أنَّ خطابَ المُستهزئينَ لا يَفتقدُ الفعل الاستراتيجيّ، وهو مَبنيٌّ على مُفارقة رَمزيّة مُدمِّرة:

- أنْ يَطلبوا من النبيِّ أنْ يكونَ خارقًا، ثم يَسخروا منه؛ لأنَّه بشرٌ
- أنْ يُظهرُوا إعجابًا ساخرًا بالمُعجزة، ثم يتَّهموهُ بالجنون
- أنْ يُقرُّوا ضِمنًا بوجودِ رسالةٍ، ثم يَسخروا منها تحتَ ستارِ العَقلانيّة أو الطَّرافة

إنَّهم في كلِّ ذلك يَنسجونَ خطابًا له بِنيةٌ لغويّةٌ مُحدَّدةٌ، وأداءٌ تَمثيليٌّ

مُجتمعيٌّ، ووظيفةٌ ثقافيّةٌ تتمثَّلُ في إلغاء قداسةِ الرَّمزِ عن طريقِ تَقليلِه، لا عن طريق مُحاججته.

إنَّ الخطابَ القرآنيَّ يَكشفُ أنَّ المُستهزِئَ لا يتحرَّكُ وحيدًا، فهناكَ تيّارٌ يَنتمي إليه "الملأ"، وهو الطَّبقةُ العُليا من المجتمع، التي تَخشى أن تَفقدَ امتيازاتها. فالمَلأُ، كما في قصّة (نوح) ﷺ، هُم مَن قالوا: ﴿**مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا**﴾ [هود: ٢٧]. هذه العبارةُ، وإنْ كانَ ظاهرُها تَوصيفًا اجتماعيًّا، لكنَّها تَحملُ سُخريّةً ضِمنيّةً من كلِّ ما يمُثِّلُه النبيُّ وجماعتُه: سخريّة من بشريّته، ومن أتباعه، ومن جَدوى دعوته.

والأخطرُ من ذلك، أنَّ الخطابَ الاستهزائيَّ قد يتحوَّلُ إلى ثقافة مُهيمنة، يُنتجُها المجتمعُ في أدبه، في أمثاله، في حكاياته؛ بحيثُ تُصبحُ السُّخريّةُ من الدِّينِ جزءًا من التَّقاليدِ الشَّفهيّة. وهذا ما يَجعل خطابَ الاستهزاء، في كثيرٍ من الأحيان، أكثرَ تأثيراً من خطاب الكُفر الصَّريح؛ لأنَّه يُضعِّفُ الدِّينَ رمزيًّا، ويُشيعُ التردُّدَ حولَه، ويُحوِّلُه إلى نُكتةٍ بدلَ أن يكونَ قناعةً.

من هنا نَفهم لماذا اعتبرَ القرآنُ المُستهزئينَ أخطرَ من الكافرينَ المُجاهرينَ، ولماذا توعَّدَهُم بالحمايةِ الإلهيّةِ الخاصّةِ للنَّبيّ، كما في قوله: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ**﴾ [الحجر: ٩٥]، ولماذا دَعا إلى تَجاهُلِهم وعدمِ الدُّخولِ في جدالٍ عبثيٍّ معَهم، كما في قوله: ﴿**إِذَا**

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ لأنَّ جدالَ المُستهزِئ لا يَطلبُ الحَقيقةَ، ويَسعى لتَحقيقِ الانتصارِ الرَّمزيّ في ساحة المَعنى.

■ المبحث الرابع:
الوظيفة النَّفسيّة والاجتماعيّة للاستهزاءِ في المجتمع الجاهليّ

لا تَنفصلُ ظاهرةُ الاستهزاء، كما يُقدِّمُها القرآنُ الكريم، عن السِّياقِ النَّفسيِّ والاجتماعيّ الذي تُنتَجُ فيه. فهي تتولَّدُ من بواعثَ ذاتيّة كامنة في نفس المُستهزِئ، وتتشكَّلُ ضمنَ مَنظومة اجتماعيّة تُمارسُ ضَغطًا ثقافيًّا هائلاً على الأَفراد، وتَستخدمُ التهكُّمَ أداةً لضبطِ السُّلوكِ، وتَرسيخِ الأعرافِ، وتَهميشِ كلِّ دعوةٍ للتَّغيير. وهكذا يتحوَّلُ الاستهزاءُ إلى أداة اجتماعيّة للضَّبطِ الجمعيّ، تُستخدَمُ بوَعي أو دونَ وعي، في مُواجهةِ كلِّ خطابٍ يُهدِّدُ الاستقرارَ الرَّمزيَّ للمجتمع القائم.

ففي المجتمعِ الجاهليّ، الذي عايَشه النبيُّ محمد ﷺ، كان الحِفاظُ على التَّقاليدِ القَبَليّة، والنُّظمِ الطَّبقيّة، والتَّصوُّراتِ الأسطوريّة عن العالَم، يُمثِّلُ خطَّ الدِّفاعِ الأَوَّلَ عن الهويّة الجَمعيّة. وكان كلُّ ما يَتحدَّى هذه المُرتكَزات يُواجَه بالقوّة، وبالتهكُّم؛ لأنَّ السُّخريّةَ هنا تُؤدِّي وظيفةً رمزيّةً: إنَّها لا تُجرِّمُ الفكرةَ مباشرةً، لكنَّها تَضعُها في

موقع "اللا معقول"، لتَدفعَ الجمهورَ إلى رفضها تلقائيًّا دونَ نِقاش. إنَّ الضَّحكَ في المجتمعِ الجاهليّ كانَ أداةً أقوى من السَّوط؛ لأنَّه يَنزِعُ الهَيبةَ عن المُختلِف، ويُحوِّلُه إلى مادّةِ تندُّرٍ، ومِن ثَمَّ يُسهِّل طردَه من الفَضاءِ الرَّمزيّ للجَماعة.

وهكذا فإنَّ الاستهزاءَ يَتجاوزُ حدودَ المقاومةِ النَّفسيّة، ويُؤسِّسُ نظامًا اجتماعيًّا مُغلقًا، لا يَسمحُ بالأسئلة الجَديدة، ولا بالمعاني الخارجة عن المألوف. وكلُّ مَن تُسوِّلُ له نفسُه خرقَ هذا النِّظام، يُواجَه أولاً بسِهامِ التهكُّم، حتى قبلَ أن تُوجَّهَ إليه الاتِّهاماتُ الدِّينيّةُ أو السِّياسيّة. يَعمل الاستهزاءُ هنا خطَّ دفاعٍ رَمزيٍّ، يُفترَضُ به أن يَكسرَ روحَ النبيِّ أو المُصلحِ، أو يُزعزعَ ثقةَ المُستمعِ به قبلَ أن تتكوَّنَ له قاعدةٌ صلبةٌ من التَّأثير.

وهذه الوظيفةُ الاجتماعيّةُ للاستهزاءِ تتجلَّى بوضوحٍ في مواقفِ قُريش من (النبيّ محمّد) ﷺ. فهم أجَّلوا اتِّهامَه بالجنونِ أو الكذبِ، وبدؤوا معركتَهم معه برُموزِ السُّخريّة: ضَحك، وتعجُّب، وتَسفيه، ووصفه باليَتيم، ووصف أتباعه بالضُّعفاء. وكلُّ ذلكَ بهَدفِ خَلقِ مناخٍ ساخرٍ من الرِّسالة، يُجهضُها رَمزيًّا قبلَ أن تُثمرَ واقعيًّا. لقد أدركوا أنَّ أوَّلَ ما يَنبغي كَسرُه هو صورةُ النبيِّ في المخيالِ العامِّ، ولذلك استخدموا الاستهزاءَ سلاحًا مَعنويًّا لنَسفِ تلكَ الصُّورةِ قبلَ أن تترسَّخ.

وظاهرةُ الاستهزاءِ التي انتشرَت في قريش، نجدُ لها أصولاً أسبقَ في

قصص الأنبياء السّابقينَ، كما في قصّة (نوح) ﷺ، قال -تعالى-: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٣٨]. فالمَلأُ هنا، وهُم رموزُ السُّلطة المُجتمعيّة، ابتعدوا عن مناقشة نوح في فكرة الطُّوفان أو جَدوى السَّفينة، واتَّجهوا إلى التهكُّم لتَقويض رمزيّة العمل ذاته. إنَّهم يَرَونَ الفعلَ، ويَعلمونَ أنَّه فعلٌ دينيٌّ يَحمل وَعدًا غَيبيًّا. ومعَ ذلك، ناصبوا (نوحًا) ﷺ العَداءَ، وواجَهوهُ بالسُّخريّة؛ لأنَّ التهكُّمَ يُسهِمُ في تَحويلِ المَعنى إلى عَبثٍ، ويُفرغُ الفعلَ من مُحتواهُ النبويّ.

وفي هذا السِّياق، يمُكنُ أن نَرى الاستهزاءَ مَظهرًا من مظاهر الجُبنِ الجَمعيّ أمامَ التَّغيير. فالمُجتمعُ الذي يَخشى مُواجهةَ ذاته يَلجأُ إلى تَسفيه مَن يَضعُ أمامَه مرآةً. والنبيُّ هو هذه المرآةُ؛ يَحملُ رسالةً، ويَطلبُ إعادةَ تنظيم السُّلوك والتَّفكير، فيَشعرُ النّاسُ أنَّ خطابَ النبوّة يُهدِّدُ استقرارَهُم النَّفسيَّ والاجتماعيَّ. وهنا تَظهر السُّخريّةُ وَسيلةً للهروب: إنَّها تُحوِّلُ الحقيقةَ إلى نكتة، بدلاً من مناقشتها، حتّى لا يكونَ ثمّةَ إلزامٌ خُلُقيٌّ بالتَّعاملِ معَها. فكما أنَّ الطِّفلَ حينَ يَشعرُ بالخوفِ يَسخَرُ ليُخفِّفَ من توتُّره، كذلك تَفعلُ المُجتمعاتُ.

ويَبدو أنَّ الاستهزاءَ في المجتمعات الجاهليّة كان أيضًا أداةَ تَمييز طبقيّ. فحينَ يقولُ أحدُهُم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، فهو لا يرفضُ النبيَّ لأسبابٍ عقليّة، وإنَّما لأنَّه كسرَ النَّسَقَ

الطَّبقيَّ السّائدَ؛ حيثُ الإيمانُ لم يَعُدْ حِكرًا على السّادة، وباتَ مُتاحًا للمَحرومينَ والمُستضعَفينَ. إنَّهم يَسخرونَ من النبيِّ؛ لأنَّه منحَ العبيدَ والفقراءَ الحقَّ في أن يَكونوا رُموزًا للإيمان، وهذا في المخيال الطَّبقيّ القديم يُعَدُّ اختلالاً في النِّظام الرَّمزيّ. فالضَّحكُ يُوجَّهُ نحوَ النبيِّ، والأخطرُ أنَّه يُوجَّهُ أيضًا إلى تلكَ الفكرةِ الثَّوريّةِ التي أعادَت توزيعَ القيمةِ الرَّمزيّةِ في المُجتمع.

ويمُكنُ القولُ -أيضًا- إنَّ الاستهزاءَ كان في المجتمعاتِ القديمةِ وسيلةً للرَّقابةِ الجَماعيّة. فحين يَسخَرُ النّاسُ من مُتديِّنٍ جديدٍ، أو من صاحبِ دَعوةٍ، فإنَّهم يُعبِّرونَ بذلك عن رَفضِهم له ولفِكرته، ويُرسِلونَ في الوقتِ ذاته إشاراتٍ إلى بقيّةِ أفرادِ المُجتمعِ بأنَّ هذا السُّلوكَ غيرُ مَقبولٍ، وأنَّ الخروجَ عن الجَماعةِ سيُقابَلُ بالتنمُّرِ والتَّحقيرِ. إنَّها آليّةُ ضبطٍ خفيّةٌ، تُمارسُها الثَّقافةُ الجَماعيّةُ من خلالِ الابتسامةِ السّاخرةِ، والتَّعليقِ الماكرِ، والطُّرفةِ التي تَنتشرُ كالنّارِ، فتُحوِّلُ الحقَّ إلى غريبٍ، وتُعيدُ ترسيخَ سلطةِ المألوفِ.

ولعلَّ أخطرَ ما في هذه الوظيفةِ الاجتماعيّةِ للاستهزاءِ أنَّها تَمنحُ المُجرمَ مكانةَ الضّاحكِ، وتَضعُ المُؤمنَ موضعَ السُّخريّةِ، وهذا السُّلوكُ يُربكُ ميزانَ الأخلاقِ في المُجتمع. فالنّاسُ يَميلونَ -بطَبعِهم- إلى مَن يَضحَكُ، ويَظهَرُ واثقًا من نفسِه ومواقفِه، لا إلى مَن يقفُ ثابتًا في وجهِ السُّخريّةِ. ولهذا، كانَت من حِكمةِ القرآنِ أن يُبيِّنَ هذه المُفارقةَ

الخُلُقيّة، كما في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، ليَقلِبَ المَشهدَ في الآخِرةِ، ويَستعيدَ المَعنى الذي شوَّهَه المُستهزئونَ في الدُّنيا.

في ضوءِ هذا كلِّه، يتَّضِحُ أنَّ الاستهزاءَ، في المجتمع الجاهليّ، لم يكنْ مُجرَّدَ عبثٍ ثقافيّ، لقد كانَ أداةً اجتماعيّةً مُنظَّمةً لإخمادِ الأصوات الجَديدة، وخاصّةً حينَ تكونُ هذه الأصواتُ متَّصلةً بالوَحي. إنَّه مُقاومةٌ ثقافيّةٌ غريزيّةٌ للنبوّةِ، تَستندُ إلى رَمزيّة التهكُّم، وتَستغلُّ هَشاشةَ التَّكوينِ الجَمعيّ في وجهِ المُختلِف. ومن هُنا تَنبعُ أهميّةُ قراءة الاستهزاءِ، من جهةِ فاعله، ومن جهةِ المُجتمعِ الذي يَتواطأُ على قَبولِه، ويُعيدُ إنتاجَه بوَصفِه مَوقفًا عامًّا من الرِّسالة.

الفصل الثاني:

البِنيةُ النَّفسيّةُ والعَقليّةُ للمُستهزِئ

■ المبحث الأول:
الاستكبار والعُجبُ بالنَّفس

مَن يَقف أمامَ سلوكِ المُستهزئ، في النصِّ القرآنيِّ، لا يَلبثُ أنْ يَشعر بأنَّ الضَّحكَ هنا ليس بَريئًا، وأنَّ السُّخريّةَ ليسَت مُجرَّدَ ردِّ فعلٍ عابرٍ على دعوةٍ لم تُفهم بعدُ. ثمّةَ شيءٌ أعمقُ يتحرَّكُ في خلفيّة هذا التهكُّم، يُشبهُ الغضبَ المُقنَّعَ، أو الهروبَ المُغطَّى بالضَّحك. إنَّه الاستكبارُ، ذلكَ التَّكوينُ النَّفسيُّ العَميقُ الذي يَجعل الإنسانَ يَرفض الحقيقةَ؛ لأنَّها تُهدِّدُ صورتَه المُتضخِّمةَ عن ذاته. ففي داخل كلِّ مُستهزئ، في الغالب، يَقبع مُتكبِّرٌ يَخشى الانكسارَ أمامَ مَعنًى يَتجاوزُ حدودَ الأنا.

إنّ الاستكبارَ -كما يَرسمُه القرآنُ- ليسَ صفةً اجتماعيّةً تَنشأُ من المالِ أو النَّسبِ أو المكانة، إنَّه حالةٌ داخليّةٌ من الامتلاء الوَهميِّ بالنَّفس، تَجعل صاحبَها يَرى في نفسه معيارًا، وفي الآخرينَ نَقصًا. وهذه الحالةُ لا تكتفي بالرَّفضِ الصّامتِ، وتحتاجُ إلى إعلانٍ رمزيّ، إلى فعلٍ يُعبِّرُ

عن رفض الدّاخلِ للنِّداءِ الآتي من الغَيب. وهنا تَظهر السُّخريّةُ، بوصفها أداةً للتَّعبيرِ عن الكِبرِ، بالتهكُّمِ الذي يُحاوِلُ أن يَصنعَ توازُنًا داخليًّا زائفًا بين ذاتٍ مُترفِّعةٍ ونداءٍ يُهدِّدُ هذا الترفُّعَ.

ولعلَّ أوَّلَ مَن عبَّرَ عن هذه البنيةِ النَّفسيّةِ كان (إبليسَ)، حينَ رفضَ السُّجودَ لآدمَ؛ لأنَّه لا يَستطيع أن يَرى في آدمَ كائنًا يَستحقُّ التَّقديرَ؛ حيث قال: ﴿**أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ**﴾ [الأعراف: ١٢]. تتجلَّى هذه الجملةُ القصيرةُ كلُّ طبقاتِ الكِبرِ: المُقارَنة، والتَّحليل، وإصدار الحُكم، ثم اتِّخاذ الموقف المتعالي. لقد اتَّخذَ إبليسُ مَوقفًا قاطعًا، لا يَحتملُ الحِوارَ والنِّقاشَ، نابعًا عن شعورٍ بالتفوُّقِ لا يُطيقُ المُساواةَ. إنَّه أوَّلُ مُستهزِئٍ في الوجودِ؛ حيث اتَّخَذَ المُقارنةَ سبيلاً لتَحقيرِ الآخَرِ، ومدخلاً للعصيانِ.

من هنا نَفهم أنَّ الاستكبارَ يَنتج عن شعورٍ بالعلوِّ، ويُولِّدُ آليّةً نفسيّةً تَرفضُ التلقِّي، تَجعلُ صاحبَها يَرى في الوَحي تَهديدًا؛ لأنَّه يُلزِمُه بالتَّواضُعِ. والمُستكبرُ، في داخله، لا يُريد أن يَضع نفسَه في موضعِ المُتعلِّمِ، ولا أنْ يُسلِّمَ لقيمةٍ أعلى من ذاته. إنَّه يَرفضُ الانحناءَ، مع خُلوِّه من المذلّة؛ لأنَّه يَنقض صورتَه التي شيَّدَها بعنايةٍ أمامَ نفسه والنّاسِ. وهذا ما يُفسِّرُ لماذا جاءَ كثيرٌ من رُدودِ المُشركينَ على (النبي محمّد) ﷺ بصيغة تَحمل الاستهزاءَ لا الجدالَ، كما في قولهم: ﴿**مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٧]، كأنَّ

النبوّةَ لا تَليقُ بفَردٍ من النّاسِ، ويَجب أن تكونَ محصورةً في مَن يُشبِهُ آلهتَهم أو طبقتَهم العُليا.

إنَّ العُجبَ بالنَّفس، وهو الصُّورةُ الخفيّةُ من الاستكبارِ، يَعمل بطريقة أهدأَ، لكنَّه لا يَقِلُّ خطورةً. فصاحبُه قد لا يُصرِّحُ برَفضِ الرِّسالة، لكنَّه يَستشعِرُ في داخله أنَّه "أعلَمُ" أو "أصفى" أو "أرفَعُ" من أنْ يتعلَّمَ من بشرٍ مثله. هذا الإحساسُ الدّاخليُّ بالتفوُّقِ المَعرفيِّ أو الرُّوحيّ يُنتِجُ تلقائيًّا سُلوكًا ساخرًا من النصِّ أو من حاملِ النصِّ؛ وذلك لأنَّ السّاخرَ يَرى نفسَه فوقَ الحاجةِ إلى البُرهان. وهنا يكونُ الاستهزاءُ وسيلةً لتكريسِ هذا التفوُّق، ولطَمسِ كلِّ أثرٍ قد يُهدِّدُ سلطةَ الأنا.

وقد رصدَ القرآنُ هذه الطَّبقةَ النَّفسيّةَ الدَّقيقةَ حينَ نقلَ عنهم قولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]؛ حيثُ تتَّضحُ نبرةُ الاستعلاءِ السّاخرِ: لِمَ لَمْ يُنَزَّلْ على أحدٍ عَظيمٍ منّا؟ مَنْ هذا الذي اختُصَّ دُونَنا بالوَحي؟ إنَّه ليسَ رَفضًا للذِّكرِ، وإنَّما هو اعتراضٌ على اختيار الله؛ لأنَّه لا يَتطابقُ معَ تصوُّراتهم عن أنفسِهم وعمَّن يَستحقُّ الخطابَ الإلهيَّ. وهنا بالذّات يَظهرُ الاستكبارُ في أوضحِ صُوره: حينَ يَتجاوَزُ الإنسانُ حدودَ العَبدِ، فيَتدخَّل في مشيئة الله، ويَستخفُّ بمَن اختارَه الله، دونَ حُجّةٍ أو منطق، لمجرَّدِ أنَّه «ليس أنا» أو «ليس نحن».

واللّافتُ للنَّظر أنَّ المُستكبرَ لا يكتفي برَفضِ الوَحي لنفسه، وإنَّما يَسعى إلى قطعِ الطَّريقِ على غيرِه، فيَنشرُ سخريّةً ثقافيّةً عامّةً، تَشيعُ في

المحيط الاجتماعيّ، فتَمنعُ المُتردِّدينَ من الاقتراب، وتُشعِرُ الضُّعفاءَ بالحَرَجِ، وتُحوِّلُ الإيمانَ إلى موضعِ تندُّرٍ. إنَّه كمَن يقول للنّاس: «إنْ صدَّقتُم هذه الدَّعوةَ، فأنتُم أغبياءُ مثلُ صاحبها»، وهنا يتحوَّلُ الاستهزاءُ إلى أداة سلطةٍ رمزيّةٍ، تُستخدَمُ لضَبطِ مسارِ القَبولِ الجَمعيّ، وليس للتَّعبير عن رأيٍ فرديّ فقط. ولهذا كان الاستكبارُ أكثرَ من مُجرَّدِ شعورٍ، إنَّه بنيةُ مقاومةٍ رمزيّةٍ كاملةٍ للرِّسالة.

وهنا نلمسُ لماذا يُحمِّلُ القرآنُ الاستكبارَ هذا القَدرَ من الخُطورة؛ لأنَّه يتجاوزُ إفسادَ قلبِ صاحبه، إلى إفسادِ أفُقِ الهدايةِ من حَولِه، ويُحوِّلُ الضَّحكَ إلى سُورٍ يمَنعِ النُّورَ من المُرور. ولهذا قال تعالى: ﴿**سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ**﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فالمُتكبِّرُ يَحرمُ نفسَه، ويُصادِرُ إمكانيّةَ التَّغييرِ في مُجتمعِه عبرَ نشرِ ثقافةِ التهكُّمِ بالدِّينِ والرُّسلِ والقِيَم. وإذا عَرفنا أنَّ الوحيَ في جوهرِه دعوةٌ للتَّواضعِ، للانكسارِ أمامَ الغَيبِ، للانفتاحِ على المَعنى، أدركْنا أنَّ الاستكبارَ هو ضدُّ الإيمانِ من أساسِه؛ لأنَّه يَرفضُ مقامَ العبوديّة.

ولذلك، فإنَّ أوَّلَ خطوةٍ في طريقِ الإيمان، بعد الاقتناعِ العقليّ، هي التَّواضعُ الدّاخليُّ. ومَن لم يمَرَّ بلحظةِ انكسارٍ صادقٍ أمامَ الله، فغالبًا ما سيُقاومُ الرِّسالةَ بالضَّحكِ، أو باللَّمزِ، أو بالتَّغاضي المَشوبِ بالتَّحقير. إنَّه لا يَضحكُ لأنَّ ما يَسمعُه مُضحكٌ، وإنَّما لأنَّه لا يَحتمل أن يُؤخَذَ على محملِ الجدِّ. وحينَ تكونُ الصُّورةُ الذِّهنيّةُ للذّاتِ هشّةً،

فإنَّ أوَّلَ ما تَفعلُه حينَ تُواجِهُ الحقيقةَ هو أن تَضحك. لكنَّ الضَّحِكَ هنا ليس قُوّةً، بل قِناعًا من خوفٍ، ونزعةً دفاعيّةً ضدَّ الزَّلزلةِ الوُجوديّةِ التي يُسبِّبُها الوَحي.

■ المبحث الثاني: الخوف من فقدان السَّيطرة والهَيبة

خلفَ كلِّ سخريّةٍ حادّة كثيرًا ما يَقبعُ خوفٌ دَفينٌ. فالمُستهزئُ، في كثير من صُوره القرآنيّة، رافضٌ للفكرةِ وعابثٌ بالمُقدَّس، والأَهمُّ من ذلك أنَّه -في عُمق لا وَعيه- خائفٌ، يَخشى أن تتبدَّدَ هيبتُه، أو تَنهارَ سُلطتُه، أو يُسحَبَ البساطُ من تحت قدمَيه. ولأنَّ الوحيَ حينَ يأتي يَقلبُ المَوازينَ، ويُعيدُ تَرتيبَ السُّلطة والمَعنى والقيمة، فإنَّ أوَّلَ مَن يشعرُ بالتَّهديد هو المُتنفِّذُ، المُتصدِّرُ، المُمسكُ بزمامِ التأثير. وهذا بالضَّبطِ ما يَجعلُ الاستهزاءَ أداةً دفاعيّةً مُشبَعةً بالقلق: إنَّها وسيلةٌ لحماية «السَّيطرة» من التآكُلِ، ولِمَنعِ الهَيبة من الذُّبولِ أمامَ نورِ المَعنى الجَديد.

إنَّ السُّلطةَ سواء أكانت دينيّةً، أم اجتماعيّةً، أم سياسيّةً، أم مَعرفيّةً، حينَ لا تكونُ مُستندةً إلى الحق، تَظلُّ بحاجة دائمة إلى أدوات تُعيدُ تَثبيتَ حضورِها. والسُّخريّةُ، في السِّياق القرآنيّ، تَظهر أحيانًا واحدةً

من تلك الأدوات. فهي لا تَسعى إلى تفكيك الحجّة، بقَدر ما تَسعى إلى تَحقير صاحبها؛ لأنَّ تحقيرَه يُبقي صاحبَ السُّخريّة في موضع السَّيطرة، ولو مُؤقَّتًا. فحينَ وقفَ (نوحٌ) عليه السلام يَصنع سفينتَه، أحجموا عن مناقشته في سبب فعله، وقالوا ساخرينَ: "تَصنعُ سفينةً في الصَّحراء؟ أتظنُّ السَّماءَ ستُمطِرُ"؟! لقد تركوا المنطقَ وراءَ ظهورهم، واتَّجهوا إلى الضَّحك بوَصفه سلاحًا دفاعيًّا ضدَّ احتمال أن يكونَ الرَّجلُ مُحقًّا.

ذلكَ أنَّ السَّفينةَ -في مثال (نوح) عليه السلام- كانَت رمزًا لمستقبلٍ آخرَ، ولعالَم مُختلف، لا مكانَ فيه للمُترَفينَ والمُستهزئينَ؛ حيث كانَت إعلانًا بأنَّ النِّظامَ القائم على القوّة والنُّفوذ سيتبدَّلُ، وأنَّ معاييرَ البقاء ستُعادُ صياغتُها على أساس الإيمان لا الامتياز. وهذا الاحتمالُ وحدَه كافٍ لأنْ يُثيرَ في نفوس المُترَفينَ فَزعًا لا يُمكن إعلانُه في الحال، فيَلجؤُونَ إلى أقربِ قناعٍ وهو: التهكُّم. فالسُّخريّةُ تَمنحُهم قدرةً على الردِّ دونَ أنْ يَبدوا خائفينَ، وتُتيح لهم الظُّهورَ بمَظهرِ القويّ الذي لا يأخذُ "خرافة" النبيّ على محملِ الجدِّ، على حين هم في داخلِهم يَرتجفونَ من احتمالات الزَّوال.

وقد رصدَ القرآنُ هذا النَّمطَ من الخوف في أكثرَ من موضع، ورَبطَه بالموقفِ العَدائيِّ من الرُّسل. ففي قصّة (فرعونَ)، لا نجدُ تحدِّيًا مباشرًا لـ (مُوسى) عليه السلام، بمقدارِ ما نقرأُ لغةَ سخريّة ثقيلة تنضحُ بالخوف من فقدانِ الهَيبة. فحين قالَ (موسى) عليه السلام: ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِى إِسْرائِيلَ**﴾

[طه: ٤٧]، لم يُجبْ (فرعونُ) بحُجّة، والتفَتَ إلى استدعاءِ السّاحرينَ، ونشرِ التهكُّم، وأطلقَ آلةَ الإعلامِ والتَّشويه. لماذا؟ لأنَّ الخطابَ النبويَّ كانَ يُهدِّدُ مَجدَه، وسُلطانَه، و"أناهُ" المُتضخِّمةَ. ولم يكنْ في وسعِه أن يَظهر مُرتبكًا، فكانَت السُّخريّةُ درعَه الأوَّلَ، ومنصّتَه لإعادة إنتاجِ الهَيبةِ المُهدَّدة. قال: ﴿**أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾؟ [الزخرف: ٥٢]. هنا لا يناقشُ الرِّسالةَ، وإنَّما يَهزأُ من الهَيئة، والصَّوت، واللُّغة، والنُّطق... لأنَّها الأماكنُ التي لا تُكلِّفُ كثيرًا، وتكفي لإحداثِ التأثيرِ المَطلوبِ في الجَماهير.

إنَّه خطابُ السُّلطة حينَ تُواجه احتمالاً صامتًا بانهيارِ نفوذِها، تَهرُبُ إلى التهكُّم من الشَّكلِ، والأسلوب، والتَّفاصيل، لكنَّها لا تقتربُ من الجوهر. فالسُّخريّةُ تَصنع جدارًا رمزيًّا، يَمنع الحقيقةَ من الوصول إلى الوَعي العامِّ. ولذلك، فإنَّ كثيرًا من المُستهزئينَ في القرآن هُم من "الملأ"، لا من العوامِّ؛ لأنَّ الخوفَ من زوال الهَيبةِ هو خوفُ النُّخبِ المُترَفة أكثرَ من البُسطاء. هؤلاءِ هم مَن يَضحكونَ، ويُريدونَ من وراءِ الضَّحكِ إخمادَ النّارِ قبلَ أن تشتعلَ، وتلتهمَ امتيازاتِهم القديمةَ.

ومن أبلغِ تجليّاتِ هذا النَّمط ما وردَ في وصف قومِ ثمودَ، الذين قالوا عن (النّبيّ صالح) عليه السلام: ﴿**أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ**﴾ [القمر: ٢٤]. لم تكنْ مُشكلتُهم معَ التَّوحيد، بمقدارِ ما كانت معَ تبعيّةِ لواحدٍ منهم، ليسَ من سادتِهم، ولا يَملكُ سلطةً في الجاهليّة.

فالمسألةُ -عندَهم- مسألةُ مَكانة، لا مَعنًى. والضَّحكُ هنا يُخفي خوفًا من أن تُعاد صياغةُ السُّلطةِ الرَّمزيّةِ في المجتمعِ، فيُصبِحُ التقيُّ رَمزًا، ويَغدو المُتكبِّرُ بلا وَجاهة.

ومن هنا نَفهم لماذا كانَ ردُّ كثيرٍ من الأنبياء ﷺ على التهكُّم غيرَ هجوميٍّ، وبهُدوءٍ نابعٍ من ثقة؛ لأنَّهم كانوا يُدركونَ أنَّ السُّخريّةَ -مهما علَت- لا تستطيعُ أنْ تَصمُدَ طويلًا أمامَ الصِّدق. إنَّهم يَعرفونَ أنَّ المُستهزئَ يَضحكُ لأنَّه خائفٌ، وأنَّ الخوفَ لا يَصمدُ أمامَ الثَّبات. وقد صوَّرَ القرآنُ هذا المَعنى حينَ قال: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [لقمان: ٧]. فالموقفُ الظّاهريُّ هو الاستكبارُ، لكنَّ المضمونَ هو هَربٌ من السَّمع، والتأثُّر، وأنْ تُحدِثَ الآيةُ شَقًّا في جدار السُّلطةِ النَّفسيّةِ التي بَناها حولَ ذاته.

وقد نلمحُ هذا البُعدَ في مجتمعاتنا المعاصرةِ أيضًا؛ حيثُ السُّخريّةُ من الدِّينِ أو من المُلتزمينَ به كثيرًا ما تَصدر من مواقع النُّفوذِ الثقافيّ أو الإعلاميّ أو السياسيّ. فالدِّينُ، بطَبيعته، يُطالبُ بإعادة توزيعِ الهَيبة؛ حيث يَجعلُ التَّقوى أساسَ الاحترام، لا الشُّهرةَ أو الثَّروةَ أو المَنصبَ. وهذا أمرٌ لا يُحتمَلُ في نفوس مَن اعتادوا أن يكونوا "مركزَ المَعنى". ولذلك، فإنَّهم يُسارعونَ إلى استخدام لغةِ التهكُّم؛ لأنَّهم يُدافعونَ عن سَرديّةِ السَّيطرةِ التي شيَّدوها في الخَفاءِ.

وفي ضوء هذا التَّحليلِ، يُصبحُ من المُمكنِ أن نَفهمَ الاستهزاءَ على أنَّه صرخةٌ صامتةٌ من أجل الحفاظِ على السَّيطرةِ الرَّمزيّة. السُّخريّة -كما يَكشفُها القرآنُ- هي لغةُ الخائفِ من انكسار الهَيبة، من صعود المُغاير، من انتقال المَعنى من فمه إلى فم آخَرَ. إنَّها خوفُ المُتصدِّر من أن يُصبحَ مُستمعًا، وخوفُ المُترَف من أن يُزاحِمَه المِسكينُ، وخوفُ الكاذبِ من أن يُسلَبَ منه احتكارُ الكلامِ.

■ المبحث الثالث:
ضعف البَصيرةِ وسخريّةُ الجاهلينَ

ليسَ كلُّ استهزاءٍ في القرآن نابعًا من كبرٍ أو سَعيٍ للهَيمنة، وإنْ كانَت تلك دوافعَ حاضرةً في كثير من مواضعه؛ إذ إنَّ نوعًا آخَر من التهكُّم يُولَدُ من الجَهل البَسيط، وضَعف البَصيرة، وقِصَر النَّظَرِ الذي لا يَرى من الأشياء إلا قشورَها، ولا من المَعاني إلا أطرافَها. وهذه السُّخريّةُ الجاهلةُ ليسَت أقلَّ خطرًا من تلك المُتغطرسة، ولعلَّها أكثرُ خفاءً وأشدُّ أثرًا؛ لأنَّها تنطلقُ من نفوسٍ لم تُرَبَّ على التَّمييز بين الهزلِ والجدِّ، ولم تُدرِكْ بعدُ خطورةَ الكلمة حين تتعلَّقُ بما هو مُقدَّسٌ.

في هذا السِّياق، يَعرض القرآنُ نماذجَ بشريّةً استقبلَت الرِّسالةَ بنُفوسٍ مُنشرِحةٍ للضَّحكِ؛ لأنَّ عقولَها لم تتعوَّدْ أن تتأمَّلَ، وقلوبَها لم تتدرَّبْ

على التَّعاطي مع الغَيب. فحين يُطلَبُ من بني إسرائيل أن يَذبحوا بقرةً، فإنَّهم لا يُواجهونَ الأمرَ بإنكارٍ صَريح، وإنَّما يَستقبلونَه باستهزاء: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ [البقرة: ٦٧]. إنَّها لحظةٌ يَكشفُ فيها القولُ عن بنيةٍ عقليّةٍ لا تَزالُ عاجزةً عن التَّفريقِ بينَ المُقدَّسِ والمألوف، وبينَ جدِّ الوَحي وعبثِ الإنسان. إنَّهم لا يَرفضونَ اللهَ، لكنَّهم يَضحكونَ من أمرِه؛ لأنَّهم لم يُربَّوا على جديّةِ العَلاقةِ مع الغَيب.

هذا النَّوعُ من السُّخريّةِ يَخرجُ من أفواهِ أُناسٍ ليسوا أشرارًا بالضَّرورة، لكنَّهم سطحيُّونَ في تلقِّي المَعنى، وقاصرونَ عن الغوصِ في العُمق. وهم حينَ يَستهزئونَ، فإنَّهم يَظنُّونَ أنَّهم يُمازِحُونَ، أو يُخفِّفونَ من وَقعِ الأمرِ، أو يتعاملونَ مع المُقدَّسِ كما اعتادوا أن يَتعاملوا مع عاداتِ مُجتمعِهم. و يُفرِّقُ القرآنُ بدقّةٍ بينَ هؤلاء، وأولئكَ الذينَ يَتعمَّدونَ السُّخريّةَ من أجلِ التَّشويه. لكنَّه -في الوقت ذاته- لا يُعفيهم من المسؤوليّة؛ لأنَّ الجهلَ لا يُسقِطُ أثرَ الكلمة، ولا يُنقِذُ من عواقبِ الاستخفاف.

ولعلَّ هذا ما يُفسِّرُ أنَّ الاستهزاءَ، في كثيرٍ من آيات القرآن، لا يُنسَب فقط إلى كبار القوم أو إلى المُترَفينَ، وإنَّما يَظهر أيضًا في أوساطِ العوامّ، الذين لا يَملكون سلطةً ولا نفوذًا، لكنَّهم يُشاركونَ في نشرِ التهكُّم بوَصفِه عَدوى نفسيّةً أو عُرفًا ثقافيًّا. فهم لا يُخطِّطونَ للإساءة، ولا يَتآمرونَ على النبيّ، وإنَّما يَضحكونَ كما اعتادوا أن يَضحكوا،

دونَ أن يُدركوا أنَّهم يُسهمونَ في تَحطيم المَعنى قبلَ أن يُولد. وقد قال -تعالى- عنهم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، فالتَّغامُزُ لا يَحتاج إلى منصبٍ أو منبرٍ، ويَكفي أن يكونَ المرءُ جاهلاً بحقيقةِ ما يَسمع، ليُحوِّلَه إلى مادّة هزلٍ.

إنَّ ضعفَ البَصيرةِ يَعني الجَهلَ بالمَعلومة، كما يَعني غيابَ حسِّ التَّمييزِ بينَ ما يَنبغي أن يُؤخَذَ بوَقارٍ، وما يَجوزُ أن يُعامَلَ بخِفّةٍ. فثمّةَ أناسٌ قد يَضحكونَ من مَشهدِ قيامِ أحدِهم للصَّلاة، أو من صوتِ تلاوةٍ في الطَّريق، أو من هيئةِ مُتديِّنٍ يَمشي بخشوعٍ، وهم لا يُعادونَ الدِّينَ، ولكنَّهم لا يَشعرونَ بقُدسيّته. لقد خُلقت فيهم ثقافةٌ لا تأخذُ الإيمانَ على محملِ الجدِّ، فتَجعلهم يَستقبلونَ أي مظهرٍ دينيٍّ بابتسامةٍ ساخرة، لا عَن شرٍّ، وإنَّما عن خواءٍ تربويّ.

وهذا ما يَجعلُ القرآنَ يُؤكِّدُ مرارًا على خطورة القَولِ بغَيرِ علم، ويُحذِّرُ من إطلاق الأحكام أو الكلمات دونَ وَعي؛ لأنَّ الكلمةَ قد تَهدمُ ما لا تَهدمُه الحروبُ. والضِّحكةُ العابرةُ قد تَصنعُ في وعي النّاسِ تَشويهًا للحقِّ، يَظلُّ يَتردَّدُ طويلاً في الذّاكرة الجَمعيّة. ولهذا، فإنَّ الجهلَ لا يُعفي من المَسؤوليّة، ويُحمِّلُ صاحبَه تبعاتِ اختيارِه أن يَظلَّ سَطحيًّا، وأن يَستهزئَ بدلَ أن يَتفكَّر.

ومن الأمثلةِ البديعة، التي تَرسمُ صورةَ هذا النَّوعِ من السُّخريّة، ما وردَ في وصف بعضِ النّاسِ حينَ يُتلى عليهمُ القرآنُ، فيَضحكونَ ويقولونَ:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. لم يأتِ هذا القولُ بعدَ تدبُّرٍ وتأمُّلٍ، وإنَّما بعدَ تلقٍّ سريعٍ، وسطحيّ، يَقف عندَ الألفاظ، ولا يُبصِرُ المَعانيَ. فهم لا يُميِّزونَ بينَ الحِكمة والأسطورة؛ لأنَّ البَصيرةَ غائبةٌ، والإدراكَ مُخدَّرٌ بعادة استقبال الخطاب بالمزاح، لا بالتفكُّر.

ومن هنا، فإنَّ سخريّةَ الجاهلينَ، في الغالب، ناتجةٌ عن غياب تربية روحيّة تُعلِّمُ الإنسانَ كيف يُنصِتُ للمَعنى، وكيفَ يَضعُ قلبَه موضعَ التلقِّي. فالعقلُ إذا لم يُدرَّبْ على الخشوع، يتحوَّلُ إلى لسانٍ ساخرٍ، واللِّسانُ إذا لم يُهذَّبْ يَصيرُ آلةً لهَدم المَعنى دونَ وعي.

ولهذا كلِّه، فإنَّ أخطرَ ما في هذا النَّمط من الاستهزاء أنَّه يَصنعُ من الجهل سلطةً اجتماعيّةً صامتةً، تتجلَّى في كثافة الضَّحك الجَماعيّ، في النكتة التي تَنتشرُ دونَ مَسؤوليّة، في التهكُّم الذي لا يَجدُ مَن يُوقفُه؛ لأنَّه لا يَحمل شتيمةً مباشرة. إنَّها ثقافةُ العبث الخَفيف الذي يُهينُ العُمقَ بصَوتٍ مُرتفعٍ، ولا يُدركُ أنَّه يُجرِّدُ الوَحيَ من قدسيّته بطَريقةٍ لا تقلُّ تَدميراً عن جحود الكفّار.

إنَّ القرآنَ حينَ يَصف هؤلاء لا يَصبُّ غضبَه عليهم بقَدر ما يَكشفُ عن عُريهم النَّفسيّ، وفقرهم إلى البَصيرة، وحاجتهم إلى لحظة وَعي تُعيدُ تَرتيبَ علاقتهم بالكلمة، بالمَعنى، بالغَيب. فهم لَيسوا بالضَّرورة أعداءً لله، لكنَّهم ضَحايا ثقافة لم تُعلِّمْهم أنَّ الصَّمتَ أحيانًا أنبلُ من الضَّحك، وأنَّ الوقارَ أوَّلُ الطَّريق نحوَ الفَهم.

■ المبحث الرابع:
التهكّم بوَصفِه آليّةَ دفاعٍ نفسيّ

ليسَت كلُّ سخريّةٍ شجاعةً، ولا كلُّ ضحكٍ قوّةً. كثيراً ما تكونُ الابتسامةُ السّاخرةُ ستاراً تُخفي خلفَه النَّفسُ ارتباكَها العَميقَ، وهشاشتَها أمامَ المَعنى، وخوفَها من التورُّط في الاعتراف. في البنيةِ النَّفسيّةِ للمُستهزئِ ثمّةَ لحظةُ انكشافٍ تُهدِّدُ صورتَه عن ذاته، فيَهرع إلى التهكُّم ليَحميَ نفسَه من القَلق، والشكِّ، والزَّلزلةِ الوُجوديّةِ التي يُثيرُها صوتُ الوَحي حينَ يَدعو الإنسانَ تَجاوُزِ ما اعتادَ، ويُعيدُ النَّظرَ في مَن يكون، ولماذا هو هنا.

فالوحيُ لا يمرُّ على النَّفسِ مرور الكرام، إنَّه يُقلقُها، ويُوقظُها، ويَطلبُ منها الخروجَ من كهفها. وهذا الطَّلبُ، عندَ كثيرٍ من النُّفوسِ، يُستقبَلُ برَفضٍ غيرِ واعٍ، ومُغلَّف بلغة خفيفة: التهكُّم. فالسّاخرُ لا يَستهزئُ لأنَّه أكثر فهمًا وبصيرة، وإنمَّا لأنَّه يُريدُ ألاّ يُضطرَّ إلى الفَهمِ والإبصار. والتهكُّمُ هنا يُصبحُ آليّةَ دفاعٍ نفسيّ، لا تَختلفُ كثيراً عن الإنكار، أو التَّسويغِ، أو الإسقاط، لكنَّه أكثرُ تمويهًا؛ لأنَّه يَبدو على المستوى الاجتماعيّ مَقبولاً، ومَشحونًا بنَوعٍ من الذَّكاء الظّاهريِّ، وقدرة على اللَّعبِ باللُّغة والمَوقف، في حين أنَّه يُخفي عجزاً داخليًّا عن الدُّخولِ في عُمقِ المُواجَهة.

ولذلك، فإنَّ المُستهزِئَ -كما يَرسمُه القرآنُ- كثيراً ما يكون إنسانًا لم يتعلَّمْ أنْ يتحمَّلَ ثقلَ المَعنى، ولا أن يُصغِيَ لنداءِ الغَيبِ. فحينَ يُتلى عليه القرآنُ، أو يَرى أثرَ الإيمان على وجوه المُؤمنينَ، يَشعرُ بنوعٍ من الارتباك، لا يَدري كيفَ يتعاملُ معَه، فيلجأُ إلى أسهلِ وسيلة لإيقافه: التهكُّم. وهذا ما نجدُه في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولا**﴾ [الفرقان: ٤١]. فالسُّؤالُ هنا تهكُّميٌّ، يُرادُ به كسرُ جدّيةِ اللَّحظة، والهروبُ من الاعترافِ عبرَ العَبث.

هذه البنيةُ الدِّفاعيّةُ تجدُ جذورَها في عُمقِ النَّفسِ البشريّة، التي تَخشى التَّغييرَ، وتَخافُ من انكشاف زَيفِها. حينَ يَشعرُ الإنسانُ أنَّ عليه أنْ يُعيدَ ترتيبَ مُعتقَداته، وأن يُبدِّلَ موقفَه من العالَم، وأن يَتنازلَ عن غروره المَعرفيِّ، فإنَّ أوَّلَ ما يَفعلُه هو أن يَسخَرَ ممَّا يُهدِّدُه؛ لأنَّ السُّخريّةَ تَحميه من اضطرار الاعترافِ بأنَّ هناك ما لم يَفهمْه، وبأنَّ عليه أن يَصمتَ ليتعلَّمَ بأنَّ الصُّورةَ التي يَحملُها عن الحياةِ ليسَت نهائيّةً. وذلكَ كلّه ثقيلٌ على نفسٍ غيرِ مُهيّأةٍ للخُضوعِ للمَعنى.

ولهذا، فإنّ المستهزئ -في وجه من وجوهه- هو إنسان خائف من نفسه، وأنْ تتسرّب إليه القناعة، أنْ يجد في قلبه صدًى لما سمعه، وأنْ يشعر بالحقيقة وهي تقترب منه، فيُسارع إلى كبحها بسلاح التهكّم. إنَّه يضحك ليمنع نفسه من الإصغاء، ويُطلق طرفة ليبعد عن عقله السؤال، ويسخر من النّبيِّ لا لأنَّه يكرهه، بل لأنَّه يكره أنْ يصدق أنّه محقّ. إنَّ

التهكّم هنا ليس اعتداءً على النَّبيِّ، بل محاولة لحماية الذات من تحوّل مفاجئ.

وقد أشار القرآن إلى هذه البنية النفسية حين وصف قومًا قالوا: ﴿**لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ**﴾ [الأنفال: ٣١]. هم سمعوا القرآن، وأبصروا تأثيره، لكنهم خافوا من الاعتراف به بوصفه كلمة إلهية؛ لأنّ ذلك يهدّد تصوّرهم عن أنفسهم، وقدرتهم، وسلطتهم على الكلمة. فلم يجدوا مهربًا نفسيًّا إلا من خلال القول التهكّمي إنَّهم قادرون على الإتيان بمثله. هذا الادّعاء، رغم ما فيه من غرور، هو دفاع نفسيّ أمام اضطراب داخليّ أثاره النصّ، وأفزعهم بما كشفه من ضعفهم أمام جلاله.

وفي نفس السياق، نلمح آيةً أخرى تُضيء هذا البُعد: ﴿**وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الفرقان: ٥]. هنا أيضًا لا يقدّمون حجة، بل يُطلقون وصفًا ساخرًا، يعفيهم من مواجهة الحقيقة. فهم لا يناقشون مصدرَ النصِّ، ويَكتفونَ بنسبته إلى الأساطير، حتّى لا يَضطرُّوا لتأمُّلِ آثاره. فالأسطورةُ، بما تَحملُه من خفّة وعدم جدّية، تُصبحُ في خطابهم درعًا نفسيًّا، يُخفِّفُ من ثقلِ التَّحدِّي الذي يُمثِّلُه الوَحيُ أمامَ عقولهم المُغلَقة.

وهذا النَّمطُ من التهكُّم الدِّفاعيِّ لا يَختفي بانتهاءِ زمنِ النبوّة، وإنَّما يتكرَّرُ في كلِّ عصر، وفي كلِّ مجتمعٍ هناكَ مَن يَستهزئُ بالدِّين؛ لأنَّ حضورَه يُوقِظُ فيه ما لا يُريدُ مواجهتَه؛ حيث يَسخرُ من الصَّلاة، لأنَّه لا

يَحتملُ أن تكونَ هي الحقيقةَ وهو غافلٌ، ويَسخرُ من الحجابِ؛ لأنَّه يَشعرُ أنَّه يُدينُه صامتًا، ويَسخرُ من الدُّعاءِ؛ لأنَّه يُوقِظُ في قلبه شعورًا بالخذلانِ الذي لم يَعرِفْ كيفَ يَتجاوزُه.

إنَّ هذا التهكُّمَ الدِّفاعيَّ خطيرٌ؛ لأنَّ مُقاومتَه تتطلَّبُ الحجّةَ، كما تتطلَّبُ إعادةَ بناءٍ نفسيٍّ للمُستهزِئ، وتَربيةً لمُواجهةِ الذّاتِ واحتمالِ الأسئلةِ الموجّهةِ إليها، وتحمُّلِ لحظةِ الاهتزازِ أمامَ المَعنى. وهو ما فعلَه الأنبياءُ عليهم السلام: فهم لم يَردُّوا على السُّخريّةِ بسُخريّةٍ، وإنَّما واجهوها بثَباتٍ ووَقارٍ وصَمتٍ وبَيانٍ؛ لأنَّهم أدركوا أنَّ الضَّحكَ في هذه الحالةِ يُرادُ به الهربُ، وأنَّ الهربَ لا يُبطِلُه الردُّ الغاضبُ، بل تُبطِلُه الحقيقةُ حينَ تُضيءُ ما خلفَ السِّترِ.

الفصل الثالث:

المُستهزِئونَ في قصص الأنبياء

■ المبحث الأول:
سُخريّة قوم (نوح) عليه السلام
الضَّحك من السَّفينة والتَّكذيب الجماعيّ

في المشهد التَّأسيسيِّ، الذي يُقدِّمُه القرآنُ الكريمُ من سيرة النبيّ نوح عليه السلام، يَبرُزُ التَّهديدُ الأكبرُ بعيدًا عن السِّلاحِ أو المؤامرةِ الخَفيّة، فيَتجلَّى في أبسط أدوات الثَّقافة اليوميّة: الضَّحِك؛ ضَحِك جماعيّ ساخرٍ ومُتكرِّر، يُوجَّه إلى رجلٍ يَقف في صحراءَ جافّة يَصنعُ سَفينةً. لا تَملكُ العيونُ المَحجوبةُ عن الغَيبِ إلا أن تَضحكَ. ولا تَملكُ القلوبُ المَشدودةُ إلى قوانينِ الواقعِ المألوفِ إلا أن تَرى في هذا الفعل ضَربًا من الهَوَسِ أو الجنون أو الطُّفولة النبويّة التي فاتَها أن تُدركَ قواعدَ الطَّبيعة. لكنَّ هذا الضَّحكَ -في عُمقه- لم يكنْ تَعليقًا ساخرًا عابرًا على مشهدٍ غيرِ مألوف، وإنَّما كان أداةً رمزيّةً مُنظَّمةً لمُقاومةِ الغَيبِ قبلَ أنْ يتجلَّى، ومُقاومةِ الرِّسالةِ قبلَ أن تَبلغَ تمامَها، ومُقاومةِ التحوُّلِ قبلَ أن يَقع.

فحينَ نقرأُ قولَه تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ**﴾ [هود: ٣٨]، فنحنُ نُواجهُ مشهدًا يتكرَّرُ: «كلَّما مَرَّ»، أي أنَّ الاستهزاءَ كان طَقسًا جمعيًّا مُستمرًّا، يُمارَس من قِبَلِ الطَّبقة الأعلى «الملأ»، ويُوجَّه ضدَّ النبيِّ بسببِ مَشروعِه الرَّمزيّ الذي لا تَستطيع المُخيِّلةُ الجاهليّةُ أن تَهضمَه. لم يكونوا يَسخرونَ من الخشبِ أو المِسمار، وإنَّما كانت سُخريّتَهم من المَعنى، ومن النبوّة وهي تُعالِجُ أخشابَ الفُلك، ومن الغيبِ وقد تجسَّدَ في صورة عمليّةٍ ماديّة ومَرئيّة. كانَت السُّخريّةُ هنا الوسيلةَ الوحيدةَ لعَزلِ هذا المَعنى قبلَ أن يتمكَّنَ من النُّفوس.

كانَت السَّفينةُ، في منطق الإيمان، رَمزًا للنَّجاة قبلَ أن تكونَ وسيلةَ سفر، وكانَت رَمزًا للثِّقة المُطلَقة بوَعد الله في زمنٍ لم تمُطِر فيه السَّماءُ بعدُ. أمّا في منطقِ المُترَفينَ، فكانَت هذه السَّفينةُ تحدِّيًا للسّائد، وإعلانًا صامتًا عن نهايةِ التَّراتُبِ الاجتماعيّ، وخلخلةً لنظامِ القوّة. فمَن يَبني الفُلكَ في الصَّحراء إنسانٌ كاملٌ، ويَملكُ رؤيةً مُختلفةً للعالَم، والزَّمن، والمَصير. وهذه الرُّؤيةُ -إن انتشرَت- ستكونُ قادرةً على تفكيكِ السُّلطة الرَّمزيّة التي بَناها المَلأُ على تصوُّرٍ مُحدَّدٍ للطَّبيعةِ والمُستقبلِ. ولذلكَ لم يكنْ أمامَهم إلا أن يَسخروا.

والسُّخريّةُ -في هذه الحالة- لم تكنْ إنكارًا مباشرًا للنبوّة، وإنَّما هي وسيلةٌ أكثرُ فاعليّةً لإضعافِ أثرِها. فالسُّخريّةُ لا تُجابَه بالحجّة، ولا

تُجبرُ القائلَ على تَبرير مَوقفه، ويكفي أن تُطلَقَ لتَجعَلَ من صَوت النبيِّ نشازًا في وعي الجَماعة. وفي هذا تتجلَّى خطورةُ الاستهزاء: إنَّه يبتعدُ عن مناقشة الفكرةَ، ويتوجَّهُ إلى السُّخريّة من حاملها، فيُسقطُ رَمزيّتَه، ويُربِكُ جُمهورَه، ويُضعفُ هَيبتَه. ولعلَّ (نوحًا)عليه السلام، وهو يَصنعُ السَّفينةَ، لم يكنْ يُواجهُ صعوبةَ جمع الخشب أو مَشقّةَ البناء بقَدر ما كان يُواجهُ الضَّحكَ الذي يُفرِغُ النبوّةَ من رَمزيّتها. لكنَّ (نوحًا) عليه السلام، لم يَرُدَّ على السُّخريّة بنَفي أو تَبرير، واكتفى بمواجهتها بمُفارقة: ﴿**قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ [هود: ٣٨].

إنَّه يترفَّعُ عن وُلوج السُّخريّة على نَمطهم، يختارُ مُقابلةَ الاستهزاء بلسان الزَّمن؛ حيث يقولُ لهم: كما تَسخرونَ منّا اليومَ لأنَّنا نُؤمنُ بالغَيب، فسَنسخَرُ منكم غَدًا حينَ يَغرقُ الواقعُ في الطُّوفان، ولا يَجدُ لنفسه فُلكًا. وهذه السُّخريّةُ وعدٌ تاريخيٌّ بأنَّ ما تَسخرونَ منه سيُصبح هو معيارَ النَّجاة.

وما يَلفتُ النَّظرَ أنَّ القومَ لم يَتوقَّفوا عن الضَّحك، حتى حينَ بدأت العَلاماتُ تَظهر. وهذا يكشفُ البُعدَ النَّفسيَّ العَميقَ للسُّخريّة: أنَّها لا تكون أحيانًا استهزاءً واعيًا، بمقدار ما تكونُ حالةً من الإنكار الجَماعيّ تُنكرُ الغَيبَ؛ لأنَّها لا تَقدرُ على تَحمُّل ثِقَله. ولعلَّ الضَّحكَ، في هذه القِصّة، ما كان إلّا محاولةً لحماية النَّفس من الاعتراف بأنَّ هناكَ مُستقبَلًا

خارجَ السَّيطرةِ، وأنَّ هذا الرَّجلَ الصّامتَ، الذي يَنحتُ الخشبَ في العَراءِ، قد يكونُ أعلَمَ بالمَطرِ من كلِّ خبراءِ الطَّقس.

وإذا تأمَّلْنا هذا المَشهدَ، في ضوءِ البنيةِ القرآنيّةِ، نُدركُ أنَّ الضَّحكَ هنا هو صوتُ الخَوفِ، لا صوتُ القوّةِ. وأنَّ الاستهزاءَ إنَّمَا يَدلُّ على هشاشةِ القومِ أمامَ منطقٍ جديدٍ لا يمُكنُهم أن يُنكرُوهُ صَراحةً، فيَلجؤونَ إلى العبثِ به من الخارج. وهذا ما يَجعلُ السُّخريّةَ، في السِّياقِ الإيمانيِّ، فعلاً دِفاعيًّا هَشًّا، يُطلَقُ حينَ تَعجزُ الحجّةُ، ويُكرَّرُ حينَ يَضيقُ الصَّدرُ أمامَ الحقيقة.

إنَّ قصّةَ (نوحٍ) عليه السلام هي قصّةُ نبيٍّ صنعَ سَفينةً، وقصّةُ مُجتمعٍ استخدمَ الضَّحكَ بدلَ التأمُّلِ، والسُّخريّةَ بدلَ السُّؤال، والتَّكذيبَ الجماعيَّ بدلَ التورُّعِ أمامَ احتمالِ الغَيبِ. إنَّها قصّةُ الضَّحكِ قبلَ المَطرِ الذي لم يُوقِفِ الطُّوفانَ، ولمْ يُنجِ النّاسَ من هَولِ الغَرق.

■ المبحث الثاني:
التهكُّم على (هود) و(صالح) و(شعيب) عليهم السلام
رفض التَّوحيد عبر السُّخريّة

لقد كانَ الأنبياءُ الثَّلاثةُ: (هود) و(صالح) و(شعيب) عليهم السلام، حاملي رسالاتٍ غيرَّت المفاهيمَ من الجذورِ: إعادة تعريف الإله، وإعادة

ترتيب العَلاقة بينَ الإنسان والمُقدَّس، وإعادة صياغة المكانة الإنسانيّة في ضوءِ ميزان التَّقوى لا السُّلطان. ولهذا، لم يكن الاستهزاءُ بهم ردَّ فعلٍ سطحيٍّ، وإنَّما كانَ تَعبيراً رَمزيًّا عن رفضٍ عَميقٍ لفِكرةِ التَّوحيدِ وما تَفرضُه من قلبٍ للسُّلَّمِ القِيَميّ القائم.

لقد واجَه (هودُ) عليه السلام قومًا امتلأت قلوبُهم بالعُجبِ بقوّتهم، فكانَت دعوتُه إلى التَّوحيد بمَثابة صَدمة تهزُّ أساسَ كِبريائِهم. ولمّا لم يَجدوا سبيلاً لمُواجهته بالفكرِ واجَهُوهُ بالاستنكارِ المَمزوجِ بالتهكُّم: ﴿**أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا**﴾ [الأعراف: ٧٠]. لقد كانت السُّخريّةُ هنا مُوجَّهةً إلى فكرةِ أنَّ التَّوحيدَ قادرٌ على إلغاءِ الإرث، وتَفكيكِ العَصبيّة الدِّينيّة، وزلزلة ما استقرَّ في القلوبِ من رُموزِ الجَماعة. إنَّهم يَسخرونَ منه؛ لأنَّ الدَّعوةَ تُربِكُ استقرارَهُم النَّفسيَّ. ففي ضوءِ هذه الدَّعوةِ لا يَعودُ الأبُ رَمزًا نهائيًّا، ولا الطَّقسُ الاجتماعيُّ مَرجعيّةً مُطلَقةً. وهنا يُصبحُ التهكُّمُ آليّةَ رَفضٍ عاطفيّةً قبلَ أن يكونَ حُكمًا عقليًّا.

وفي سيرةِ (صالح) عليه السلام، نَقرأُ مَشهدًا أكثرَ تَركيزاً، يتجلَّى فيه الاستهزاءُ في قمّة عناده وغُروره. فحينَ دَعاهم إلى الإيمان، واشترطوا عليه مُعجزةً بعَينِها، فجاءتْهم النّاقةُ آيةً بيِّنةً، لم يَسجدوا لله، بل زادوا استهزاءً؛ حيث قالوا: ﴿**يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ**﴾ [هود: ٦٢]. في هذه العبارة تَختبِئُ أكثرُ من طبقةٍ من السُّخريّة.

قالوا: «كُنّا نَحترِمُكَ... قبلَ أن تتكلَّمَ»، ولم يقولوا: أنت كاذبٌ. إنَّها سُخريّةٌ مَشوبةٌ بالخذلان المُتعمَّد، تَسعى لتقويضِ شخصِ النبيِّ لا لنقاشِ فكرته. وهكذا يتحوَّلُ النَّبأُ العظيمُ إلى مادّة للتهكُّمِ الشَّخصيّ، ويُختصَرُ الوَحيُ في خيبةِ ظَنٍّ، وتُختزَلُ الرِّسالةُ في خيانة صورةٍ اجتماعيّة رَسموها لصالحٍ من قبلُ. وما هذه الصُّورةُ إلا قيدٌ رَمزيٌّ، مَن يُرِدْ كَسرَهُ سيُواجَهُ بالتَّقليلِ والسُّخريّة.

أمّا (شعيبٌ)عليه السلام، فقد واجَهَ قَومًا امتلأت حياتُهم بالغِشِّ والتَّطفيف والاحتكار، وكانَت دَعوتُه للتَّوحيدِ مُقترنةً بإصلاحٍ اقتصاديٍّ واجتماعيّ واضح، فشَعروا أنَّ النبوّةَ تضعُ يدَها على موضعِ الفَسادِ الحَقيقيّ، وتُهدِّدُ أرباحَهم ونفوذَهُم. فكانَ لا بدَّ من الاستهزاءِ من صاحبِ الدَّعوةِ أولًا، ومن الدعوة ذاتها ثانيًا؛ حيث قالوا: ﴿**يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ**﴾ [هود: ٨٧]. في ظاهرِ العبارةِ امتداحٌ، لكنَّ بنيتَها التهكُّميّةَ واضحةٌ: «أنَّى للحليمِ الرَّشيدِ أن يَطلُبَ منّا التَّخلّي عن المال والطَّريقة» إنَّها سخريّةٌ مُلتويةٌ، تقلبُ الصِّفاتِ الطَّيِّبةَ لتُدينَ صاحبَها ضِمنيًّا. وهكذا يُستعمَلُ الخطابُ الإيجابيُّ نفسُه في سياقٍ هازئٍ، تَسخَرُ فيه النُّعوتُ من مَعانيها بدلَ أن تَحتفِيَ بها.

وما يَجمَعُ هذه النَّماذجَ الثَّلاثةَ من الاستهزاءِ هو أنَّها كلَّها تُعبِّرُ عن

رفضِ التَّوحيدِ في عُمقِه الرَّمزيّ لا في سَطحِه العَقديّ. فهؤلاءِ يقبلونَ بوجودِ إلهٍ، ولكنَّهم يعترضونَ على سُلطةِ هذا الإلهِ في قَلبِ مَعاييرِهم، وفي مَحوِ صورةِ الأبِ، وتَفكيكِ إرثِ الآباءِ، وتَقييدِ حُرِّيتِهم في المالِ والجاهِ والعبادة. ولأنَّهم لا يَملكونَ شجاعةَ مُواجَهةِ هذه الحَقيقةِ، فإنَّهم يَستعيضونَ عن الجَدلِ بالسُّخريّةِ، وعَن المُحاجَّةِ بالتهكُّمِ، وعن التأمُّلِ بالضَّحك.

وهنا يتَّضِحُ أنَّ السُّخريّةَ من الأنبياءِ كانَت وَسيلةً دفاعيّةً مُتعمَّدةً، تَسعى إلى تَفريغِ الخطابِ التَّوحيديّ من خَطرِه الثَّوريّ على القِيَمِ المُجتمعيّةِ المَوروثة. لقد كان كلٌّ من (هود) و(صالح) و(شعيب) عليهم السلام يَطرحُ بديلاً رمزيًّا عن الدِّينِ القائمِ على مستوى الاعتقادِ والبنيةِ الاجتماعيّةِ والسِّياسيّةِ والثَّقافيّة. ولهذا، كانَ رَدُّ أقوامِهم رَدًّا ساخِرًا؛ لأنَّ السُّخريّةَ تُريحُ النَّفسَ من الخُضوعِ، وتَمنحُها مساحةً وَهميّةً من العُلوِّ، وتُعفيها من التَّفكيرِ في جديّةِ ما يُقال.

لقد كانتِ النبوّةُ، في هذهِ النَّماذجِ الثَّلاثة، مَشروعًا تَحويليًّا يُعيدُ تَشكيلَ العَلاقةِ بينَ الإنسانِ والكونِ والإلهِ. لكنَّ السُّخريّةَ جاءَت بوصفِها حائطَ صَدّ، يَقفُ في وَجهِ الرَّمزِ. ولذلك كانَت النِّهاياتُ مأساويّةً: ضحك القومُ، لكنَّهم هلكوا. وصمت الأنبياءُ، لكنَّ السَّفينةَ تحرَّكَت، والصَّيحةَ جاءَت، والرَّجفةَ صَعدَت، والسُّخريّةُ لم تَحمِ أحدًا من الحقيقةِ حينَ نزلَت.

■ المبحث الثالث:
استهزاء (فرعونَ) من (موسى) عليه السلام
الكلمة ضدَّ الطُّغيان

في مشهدِ الصِّراعِ بينَ (مُوسى) عليه السلام و(فرعونَ)، يَظهرُ الاستهزاءُ بوَصفه أداةَ سلطةٍ واعية، هدفُها إضعافُ رمزيّةِ النبوّةِ أمامَ الجماهير. فالطّاغيةُ لا يَسخرُ من الفكرةِ لأنَّها خَطِرة فحسب، بل لأنَّها قادرةٌ على زلزلةِ أسُسِ حُكمه بخطابِ الكلمة، التي تَنزعُ عن الفرعون صفةَ الرُّبوبيّة، وتَضعُه أمامَ مرآةِ هَشَّتِه البَشريّة، وتُطالِبُ النّاسَ بالخروجِ من عبادةِ الطُّغيانِ إلى عبادةِ الله.

وهكذا، حينَ وقفَ (مُوسى) عليه السلام أمامَ (فرعونَ) مُطالبًا بتَحريرِ بَني إسرائيلَ، كانَ مَطلبُه يَتجاوزُ الشّأنَ السِّياسيَّ، ويُعلِنُ عن بدايةِ عصرٍ جديدٍ للمَعنى: عصرٍ لا يُقاس فيه الإنسانُ بمَقامه السِّياسيّ، وإنَّمَا بمَوقعِه من العَدلِ والإيمان. ومع هذا الإعلان، كانَ لا بدَّ للطّاغيةِ من أن يَشهرَ سلاحَه الأقدَمَ والأكثرَ شُيوعًا: السُّخريّة. فقال فرعونُ لقومه، مُشيرًا إلى (مُوسى) عليه السلام: ﴿**أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾؟ [الزخرف: ٥٢].

هذه الجملةُ تُلخِّصُ بنيةَ الاستهزاءِ الطُّغيانيِّ بكلِّ دقّة. فـ(فرعونُ) لا يُناقِشُ الحجّةَ، ويتوجَّهُ إلى مهاجمةِ الهَيئة، واللِّسان، والخَلفيّة

الاجتماعيّة، ليقولَ: كيفَ لرجلٍ كهذا أن يُنازِعَني؟ وكيفَ لمَن «لا يَكادُ يُبينُ» أن يَحملَ كلامَ الله؟ فيَختزلُ الوَحي في النُّطق، ويُقلِّلُ من شأن الرِّسالة من خلال التَّقليل من شأن حاملها. إنَّها سخريّةُ النُّخبة من الطَّبقة الدُّنيا، وسُخريّةُ السُّلطة من الهامش. لكنَّها، في الحقيقة، لم تكنْ سوى مُحاولة دفاعيّة أمامَ نبيٍّ اخترقَ عُمقَ المَعنى، وقال لـ (فرعون)، لأوَّلِ مرّةٍ، ما لم يَقُلْه أحدٌ من قبلُ: «إنَّكَ لستَ إلهًا، إنَّكَ عبدٌ لله»

وقد تكرَّرَت مُحاولاتُ (فرعون) لنَسف صورة (مُوسى) عليه السلام بسُخريّة مَصنوعة، ومُوظَّفة أمامَ النّاس، وصادرة عن تَخطيط ودراية، وهي جزءٌ من الحرب الرَّمزيّة على الكلمة الصّادقة. ففي موقف آخَرَ قال: ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦].

وهنا يَبلغُ الاستهزاءُ مُستوى التَّزييف: فدَعوةُ (مُوسى) عليه السلام تُقدَّم للنّاس على أنَّها دعوةٌ إلى الفساد، لا إلى الإصلاح، وإلى التَّخريب لا إلى النَّجاة. ولعلَّ أخطرَ صُوَر الاستهزاء ما يكونُ مُموَّهًا بلغة الحَذر، فيُقال عن النبيِّ إنَّه فتنةٌ، وعن الرِّسالة إنَّها تَهديدٌ، وعن الوَحي إنَّه اضطرابٌ اجتماعيّ. وبهذا، تتحوَّلُ السُّخريّةُ من موقف فرديٍّ إلى سياسة ثقافيّة مُمَنهَجة، تَهدفُ إلى تَحصين الوَعي العامِّ ضدَّ اختراق الحَقيقة.

لكنَّ أخطرَ تجلِّيات هذا التهكُّم تظهرُ حينَ يَستعرِضُ (فرعونُ) قوّتَه أمامَ النّاس، فيَجمعُ السَّحرةَ، ويُحوِّلُ المُواجَهةَ إلى عرضٍ جماهيريّ،

ثم يُدخِلُ (مُوسى) عليه السلام في مشهدٍ استعراضيّ، ليُجرِّدَه من قُدسيّته، ويُقدِّمَه على أنَّه واحدٌ من لاعبي السّاحة. قال في لحظة الاستخفاف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

وهنا يعترفُ (فرعونُ) بقوّة (مُوسى) عليه السلام، لكنَّه يُعيدُ تَعريفَها ضمنَ إطارٍ عبثيّ. إنَّه يُقِرُّ بالمُعجزة، لكنَّه يُؤطِّرُها بلغة السّاحر، ليُطفِئَ أثرَها الرَّمزيَّ في القلوب. وهذه لحظةٌ جَوهريّةٌ في فَهم آليّة الاستهزاء: أنْ تَهدِمَ المَعنى بإعادة التّأويل، لا بالرَّفض، وأنْ تَقلبَ الكلمةَ بتَحويرها عن معناها، فتتحوَّل المُعجزةُ إلى خدعةٍ، والنبيُّ إلى مُهرِّجٍ، والوَحيُ إلى تكرارٍ لما هو مألوفٌ.

ومعَ ذلك، لم يَنجرّ (مُوسى) عليه السلام إلى الردِّ السّاخر، وواجَهَ الاستهزاءَ بالصَّمت، والثِّقة بالله، والحضور الهادئ. لم يَرُدَّ على وَصفه بـ"السّاحر" بالسُّخريّة، وأطلقَ عَصاهُ، فابتلعَت ما صَنعوا، لتُثبتَ أنَّ الحقيقةَ، حينَ تتجلَّى، تُسقطُ كلَّ بناءٍ رَمزيٍّ زائفٍ مَهما بَدا مُتماسكًا. وقد شاءَ القرآنُ أن يَصِفَ هذا المَشهَدَ بكلماتٍ تَفضَحُ خوفَ السُّلطة من المَعنى: "فأُلقِيَ السَّحرةُ ساجدينَ"، ففي هذه السَّجدة الجَماعيّة، انهارَ خطابُ التهكُّم، وبقيَ وجهُ الحقِّ قائمًا.

إنَّ استهزاءَ (فرعونَ) بـ (مُوسى) عليه السلام هو مثالٌ مُكثَّفٌ عن كيفيّة مُحاربة السُّلطة الطّاغية الوَحيَ قبلَ أنْ تُحاربَه بالسَّيف، تُحاربُه بالتَّهكُّم، والتَّقليل من شأنه، والعَرضِ السّاخر، والكلماتِ المُحمَّلة بالرَّمز، وضَحكِ

الجماهيرِ قبلَ سَوطِ الجَلّاد؛ لأنَّ الطُّغيانَ، حينَ يَرى الكلمةَ الصّادقةَ، يَرتجفُ أكثرَ من ارتجافِه أمامَ الثَّورةِ المُسلَّحة. فالثَّورةُ تُواجَهُ بالقَمعِ، أمّا الكلمةُ فإنَّها إنْ سكنَت في القلبِ لا تُنتَزَعُ، ولا تُقهَرُ، ولا تُنسى.

ولذلكَ، حينَ قال (فرعونُ) في آخرِ المَطافِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، كانَ في مَوقعِ المُفلِسِ لا السّاخرِ. لقد سقطَت السُّخريّةُ، ولم يَبقَ له إلا أنْ يَرفَعَ صوتَه فوقَ المَعنى، ويُعلِنَ ألوهيّتَه ليُسكتَ الضَّميرَ الجَمعيَّ الذي بدأت الكلمةُ تَهزُّه. وفي هذه اللَّحظة، تتَّضحُ لنا نهايةُ الاستهزاءِ حينَ يُهزَمُ: يتحوَّل إلى صراخٍ مَجنون، لا يَملِكُ من المَعنى إلّا ما يَكشِفُ ضعفَه.

■ المبحث الرابع: استهزاء بني إسرائيل من التلكُّؤ إلى التهكُّم

في مسيرة بَني إسرائيلَ، كما يَسردُها القرآنُ، تظهرُ السُّخريّةُ بوَصفِها سُلوكًا داخليًّا يَصدُرُ من الذين شملَهُم الوَحيُ، وتورَّطُوا في التَّعاملِ معَه. ولم تَصدرِ السُّخريّةُ هنا عن رفضٍ صَريحٍ للنبوّة، وإنَّما صَدَرَت عن رغبةٍ داخليّةٍ في المُماطَلة، وتُعبِّرُ عن أزمةٍ في التلقِّي، وتَضارُبٍ بينَ العَقليّةِ المَوروثةِ ومُقتضياتِ الطّاعة. وهكذا، فإنَّ استهزاءَ بَني إسرائيلَ

كانَ مُختلفًا عن الضَّحك الوَثنيّ على الأنبياء؛ إذ كانَ صورةً مُركَّبةً من التردُّدِ والاعتراضِ والتَّكاسُلِ، في مَزيجٍ يَجعل التهكُّمَ أقربَ إلى التهرُّبِ منه إلى العَداءِ الصَّريح.

في واحدةٍ من أشهرِ المَحطّات، حينَ أمرَهُم اللهُ بذَبحِ بقرةٍ، تقاعَسوا وانحرفوا عن الجدِّيّة، وحاولوا نزعَ هيبةِ الأمرِ عبرَ الطُّرفة؛ حيث قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وهنا تَبدو المُفارقةُ القاسية: إنَّهم يَتَّهمونَ النبيَّ بالاستهزاءِ، ليسَ لأنَّهم لا يَفهمونَ كلامَه، وإنَّما لأنَّهُم يَخشونَ أن يكونَ جادًّا. فلو كانَ الأمرُ على سبيلِ الهَزلِ لانتهى التكليفُ، وسقطَ الواجبُ. لكنَّهم شَعروا بأنَّ الأمرَ يتضمَّنُ شيئًا يتجاوزُ مَنطقَهم، فأرادوا أن يُسقِطوهُ في خانة المزاحِ. إنَّها آليّةٌ نفسيّةٌ مُعقَّدةٌ: أنْ يُتَّهَمَ المُبلِّغُ بالهَزلِ، حتى يتحرَّرَ المُتلقّي من عِبءِ الطّاعة.

وحينَ تَبيَّنَ لهم أنَّ الأمرَ جادٌّ أخفَوا سُخريّتَهُم، ودخلوا في دوّامةٍ من الأسئلة المُتعمَّدة التي لا غايةَ لها إلا التَّراخي والمُماطَلة: "ما هِيَ؟"، ثمَّ "ما لونُها؟"، ثمَّ "إنَّ البقرَ تشابَه علينا".

هذه الأسئلةُ ليسَت طَلَبًا للبيان، وإنَّما هي استراتيجيّةٌ للهروبِ الرَّمزيّ من التَّنفيذ، تَلبسُ لباسَ الاستفهام، لكنَّها تَنطوي على قدرٍ خفيٍّ من التهكُّمِ غيرِ المُعلَن: "كيفَ يأمرُنا الإلهُ بأمرٍ لا نَفهمُه بسُهولة؟ أليسَ من المُفترَضِ أن يكونَ الأمرُ واضحًا منذُ البداية؟". وهكذا، يتقبَّلونَ

الوحيَ في الظّاهِرِ، ثمَّ يُحرجونَه، ويَنتزِعونَ عنه جديّتَه عبرَ تَعقيدٍ لا مسوِّغَ له.

وقد أشار القرآنُ إلى هذه النَّفسيّةِ حينَ قال: ﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [البقرة: ٧١].

فالسُّلوكُ الفعليُّ جاءَ بعدَ مُماطَلَة، وبعدَ تهكُّم مُوارِب، وبعدَ مُحاولاتِ تَحويلِ التَّوجيهِ إلى مادّةٍ للتفلسُفِ والالتفاف. إنَّها سُخريّةُ التلكُّؤِ، لا التهكُّمِ الظّاهِرِ. لكنَّها، رغم خَفائِها، تَحمِلُ كلَّ معاني الاستهزاءِ: النَّزعِ التَّدريجيّ لهَيبةِ الوَحي، وإغراقِ التَّكليفِ في متاهةِ الأسئلة، وتحويلِ النبيِّ من حاملِ أمرٍ ربانيّ، إلى مُفسِّرٍ مُربِكٍ لا يُعطي جوابًا قاطعًا. وهكذا، تُفرَّغُ الرِّسالةُ من رَمزيّتِها، ويُختزَلُ الموقفُ الإيمانيُّ إلى تفاعلٍ شكليٍّ معَ أوامرَ لا يُرادُ تَنفيذُها.

ولم يَقتصِرْ هذا النَّمطُ على قصّةِ البَقرة. ففي لحظاتٍ أُخرى، أظهرَ بَنو إسرائيلَ قدرًا من التَّحايُلِ المُبطَّنِ بالسُّخريّة، كما في قضيّةِ الصَّيدِ يومَ السَّبت، حيثُ حوَّلُوا الامتحانَ الإلهيَّ إلى فُرصةٍ للعَبثِ الرَّمزيّ: لم يَصطادُوا عَلنًا، لكنَّهم وَضعوا الشِّباكَ قبلَ السَّبت، وجَمعوها بعدَه، ليَقولوا ضِمنًا: "أطَعناكَ... على طريقتنا". وهذا النَّمطُ من التهكُّمِ يَتجاوزُ النبيَّ، ويَتوجَّه إلى اللهِ نفسه. إنَّه سُخريّةٌ من الفكرة لا من الشَّكلِ، ومن الرُّوحِ لا من الحَرف. فالمَطلوبُ طاعةٌ تقومُ على صدقِ العلاقةِ معَ اللهِ، لا على المُخادَعةِ والتَّحايُلِ الهَندسيّ. لكنَّهم أرادوا

أن يَخرجوا من الفكرةِ بمَعزل عن جَوهرِها، فمارَسوا سُخريّةً تَنفيذيّةً لا لفظيّة، تَنتمي إلى جنس التمرُّدِ المُقنَّع.

وفي مواقفَ أخرى، كقولهم لـ (مُوسى) عليه السلام: ﴿**فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤]،

تتجلَّى السُّخريّةُ في أوضحِ صُورها: لا يُخاطَبُ (مُوسى) عليه السلام بالحَزم، ويُدفَعُ إلى المَجهولِ معَ ربِّه، كأنَّ القومَ يَقولونَ: «طالَما أنَّ لكَ علاقةً خاصّةً به، فخُضِ المَعركةَ وَحدَكَ». هذه العبارةُ تَنطوي -فضلاً عن الجُبنِ- على استهزاءٍ خفيٍّ من علاقةِ (مُوسى) عليه السلام بالله، على تَفويضٍ ساخرٍ، لا يَعترفُ بمَكانةِ النبيّ، ويُحيلُه إلى مَعركةٍ مُنفصلةٍ عنهم. إنَّها لحظةُ انفصالٍ رمزيٍّ عن المَشروعِ الإيمانيِّ، تحتَ قناعِ التَّثاقُلِ.

وهكذا تتشكَّلُ شخصيّةُ المُستهزِئِ في بَني إسرائيلَ على نحوٍ مُغاير: ليسَت سُخريّةً صوتيّةً كما في قريش، ولا تَعاليًا سُلطويًّا كما في (فرعونَ)، وإنَّما استهزاءٌ بالتَّكليفِ من داخلِ الدِّين، ومن مَوقعِ المُتلقِّي الذي يَلتفُّ على الوَحي بالعباراتِ، أو بالتأويلِ، أو بالتَّنفيذِ القَلِقِ. وهذا النَّمطُ يُعَدُّ أخطرَ الأنماط؛ لأنَّه يَحملُ لَبوسَ الطّاعة، ويُخفي في داخله امتعاضًا من الانقيادِ الكاملِ. فلا يُعلِنُ العصيانَ، وإنَّما يُمارسُه ببُطء، وبنَبرةِ التَّثاقُلِ، وبأسلوبِ السُّؤالِ المُتكرِّرِ، أو الالتفافِ الذَّكيِّ، أو الحيادِ الظّاهريّ.

إنَّ سُخريّةَ بَني إسرائيلَ تختلفُ عن سُخريّةِ الضَّحكِ، فهيَ قَتلٌ بَطيءٌ للرِّسالةِ عبرَ خَنقِها بأسئلةٍ لا تَنتهي، وتَطبيقاتٍ لا رُوحَ فيها، وتردُّدٍ يُشوِّهُ

الوُضوحَ. ولهذا، فإنَّ القرآنَ لم يَكتفِ بتَوثيقِ مَواقفهم، وإنَّما قدَّمَها نَموذجًا يُحذِّرُ منه الأمّةَ لاحقًا؛ لأنَّ التَّحايُلَ على المَعنى باسم الطّاعةِ هو النَّمطُ الأرقى من الاستهزاءِ الرَّمزيّ من الوَحي.

■ المبحث الخامس: استهزاء (قريش) بـ (النَّبيّ محمّد) ﷺ من الرَّمز إلى الشَّخص

في ذروةِ البعثةِ النبويّة، حينَ ظهرَ (النَّبيّ محمّد) ﷺ في مجتمعٍ تَتنازعُه المَصلحةُ والعادةُ، وتتصارعُ فيه الرُّموزُ الجاهليّةُ مع بشائرِ الوَحي، كانَ التَّهديدُ الذي شعرَ به سادةُ (قريش) مُتمثِّلًا في رَمزيّةٍ جديدةٍ تتكوَّنُ، وتُعيدُ تَعريفَ القَداسة، وتُحدثُ انقلابًا هائلًا في المَوازين. هنا تجاوزتِ القَضيّةُ حدودَ إنكارِ الفكرة، وأُعلنتِ الحربُ على رمزٍ يتمركزُ بسرعةٍ في وَعي النّاسِ، ويَكتسبُ شرعيّةً خارقةً تُهدِّدُ وجودَ المُؤسَّسةِ القُرشيّة بأسرها.

لكنَّ (قريشًا)، بعَقلها الإعلاميِّ النَّشط، أدركَت أنَّ مُواجهةَ هذا الرَّمزِ من جهةِ النبوّة ستُفضي إلى فَشلِها؛ فكانَ البديلُ الأكثرُ دهاءً: فصلَ الرِّسالةِ عن حاملِها، وتَشويهَ الرَّمزِ عبرَ استهداف الشَّخص. لم يَقولوا إنَّ الوَحيَ باطلٌ – في البدايةِ – وإنَّما قالوا: هذا الرَّجلُ ساحرٌ، وشاعرٌ،

وكاهنٌ، ومجنونٌ، ويُعلِّمُه بشرٌ. وهكذا، تحوَّلَ الهجومُ من مُواجَهةِ مُحتوَى القرآنِ إلى استهزاءٍ من شَخصِ النبيّ، ولسانه، وتاريخه، وسُلوكه، ومَكانته الاجتماعيّة، في مُحاولةٍ واضحةٍ لـنَزعِ الهَيبةِ عن شَخصه، ليُفرِّغَ الوَحيَ من قداسته بالتبعيّة.

قال تعالى واصفًا استهزاءَهُم: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحجر: ٦].

إنَّهم أقرُّوا بنُزولِ الذِّكرِ، لكنَّهم جعلوا اعترافَهم به مَدخلاً للسُّخريّة: "هذا الذي يقولُ إنَّه حاملُ رسالة، مَجنونٌ". إنَّها سخريّةٌ مَشحونةٌ، تُثبتُ وتُفنِّدُ في الجُملة نفسها. كأنَّهُم أرادوا أن يُبطلُوا الأثرَ النَّفسيَّ للنبوّة، بأن يُظهرُوا (النَّبيّ محمّد) ﷺ بوَصفه غيرَ مُتَّزِن عَقليًّا؛ لأنَّهم عاجزونَ عن مُجابهةِ كلماته التي اخترقَت وجدانَ الجَماعةِ بسُلطانٍ لم يَعهدوهُ من قبلُ.

وفي موضعٍ آخرَ، قالوا: ﴿**مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ**﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وهنا تأخذُ السُّخريّةُ طابعَ التَّنميط، فتتحوَّلُ النبوّةُ إلى ما يُشبهُ الخُدعةَ الاجتماعيّةَ: "لو كانَ نبيًّا حقًّا، لَما عاشَ مثلَنا." كأنَّهم يَقولون: إذا كان بشرًا فهو مِثلُنا، فلا حقَّ له بالتميُّز؛ وإن كان مُختلفًا، فأينَ علامتُه؟ وهكذا تتحوَّلُ البَديهيّاتُ إلى مداخلَ للاستهزاء: يأكلُ الطَّعامَ؟ يَتمشَّى في الأسواق؟ إذنْ لا يُمكِنُ أن يكونَ نبيًّا. إنَّه منطقٌ ساخرٌ يُفرِغُ المُقدَّسَ

من مُحتواهُ عبرَ تَسخيف التَّفاصيلِ المألوفة.

وتكرَّرَت عباراتُ التهكُّم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١].

فإذا كان (النَّبيّ محمّد) ﷺ فقيراً فقُدرتُه الرَّمزيّةُ – في نظرِهم – باطلةٌ. وإذا كانَ بلا نفوذٍ فخطابُه غيرُ مُلزِم. وإذا لم يكنْ من طبقة الكبار، فلا قيمةَ لما يَنطِقُ به. وهذه هي السُّخريّةُ التي تَقيسُ الحقيقةَ بمَعاييرِ الجاه، وتَختزِلُ الوَحيَ في مُواصفاتٍ بشريّةٍ لا علاقةَ لها بالصِّدقِ الإلهيّ. وهنا تتجلَّى قريشٌ بوَصفِها بيئةً تَصوغُ آليّةَ التَّهكُّم بالنبوّةِ لا بوَصفِها تَهديدًا للامتيازِ الطَّبقيّ والنِّظامِ الاجتماعيِّ، لا بوَصفِها عقيدةً فاسدةً.

لكنَّ الأمرَ لا يتوقَّفُ عندَ اللُّغة، إذ يَتعدّاهُ إلى الأداءِ التَّمثيليّ. فقد تَعمَّدَ بعضُهم أن يُقلِّدَ صوتَ النبيِّ ساخرًا حينَ يَتلو القرآنَ، أو يُكرِّرَ كلماتِه على سبيلِ الهُزءِ، كما رُوي عن (الوليد بن المُغيرة)، و(العاصِ بن وائل)، و(الحارث بن عامر)؛ حيث قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وهذه السُّخريّة تتخلَّى عن إنكارِ الآيةِ، وتعملُ على إفراغِها من مُحتواها بالإرجاعِ إلى النَّمطِ القَديم، كأنَّها لا تَحملُ جَديدًا، ولا تهزُّ وَعيًا. إنَّها حربٌ رَمزيّةٌ على الإحساسِ بالفَرادةِ، وخُدعةٌ لتَطمينِ الجماهيرِ أنَّ هذا

القرآنَ يُشبهُ ما نَعرفُه... فلا تَقلقوا.

والأخطرُ من ذلك كلّه أنَّ السُّخريّةَ القرشيّةَ امتدَّت إلى البنية الجَماعيّة؛ إذ تَحوَّلَت إلى ثقافة استهزاءٍ مُنظَّم، يُشاركُ فيها المَلأُ، والمارّةُ، حتّى الأطفالُ، ليُصبحَ الهُزءُ حالةً اجتماعيّةً عامّةً. فالنبيُّ حينَ يَخرجُ إلى الصَّلاة، يُرمى بكلمات، ويُتَّهم بالجنون، وتُقال عنه القصَصُ المُضحكة. وفي هذا كلِّه، تَسعى (قريشٌ) إلى كسر الجديّة المُرتبطة بالنبيّ، وتَحويل حُضوره إلى مادّة ضاحكة تُفرِّغُ الرِّسالةَ من وَقارها.

ومع ذلك، فإنَّ القرآنَ لم يُواجه هذه السُّخريّةَ بانفعال مُماثل، وبدلًا من ذلك سجَّلَها ببلاغة هادئة، كاشفًا بنيةَ الاستهزاء، ومُفنِّدًا مَنطقَه، ومُظهرًا أنَّ مَن يَضحكونَ الآنَ إنَّما يَهربونَ من الحقيقة التي بدأتْ تُهدِّدُ مكانتَهم في الوَعي العامِّ. قال -تعالى-: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

فالضَّحكُ هنا ليسَ نابعًا من إدراكٍ باطلٍ عندَ المُؤمنينَ، وإنَّما من حالةِ فزعٍ داخليٍّ عندَ المُجرمينَ، يُحاولونَ سَترَها بالاستهزاء.

لقد تحوَّلَ استهزاءُ (قريشٍ) من مجرَّد كلمات إلى حربٍ رَمزيّة كُبرى تَهدف إلى قَتلِ الرَّمز عبرَ إهانة الشَّخص. ولهذا فإنَّ القرآنَ، في مواضعَ كثيرة، خاطبَ النبيَّ بالتَّثبيت لا بالردِّ: ﴿**وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا**﴾ [المزمل: ١٠]؛ لأنَّ السُّخريّةَ -في حقيقتها- هي صرخةُ ضَعفٍ تَتخفَّى خلفَ قناعِ الضَّحك.

الفصل الرّابع:

أدوات الاستهزاء في القرآن الكريم

■ المبحث الأول:
السُّخريّة من الشَّخصِ والهَيئة واللِّباس

من بين أبرَز أدواتِ الاستهزاءِ، التي سجَّلَها القرآنُ الكريم، تَبرزُ السُّخريّةُ من الشَّخصِ والمَظهرِ الخارجيِّ وسيلةً سَهلةً وسريعةً لإسقاطِ الهَيبةِ عن المُؤمنينَ، وتَفريغِ الرِّسالةِ من مَهابتِها عبرَ النَّيلِ من شكلِ حامليها لا من مَضمونِ ما يَحملونَه. فالمُستهزئُ، حينَ يَعجزُ عن مُواجهةِ الحَقيقةِ، يُحيلُ المَعركةَ إلى ساحةٍ أُخرى: فيَستهدفُ المَظهرَ؛ لأنَّ الوصولَ إلى الجوهرِ قد يَهزُّ صورتَه أمامَ النّاسِ وأمامَ نفسه.

وقد وردَ هذا النَّمطُ بوُضوحٍ في قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ**﴾ [الحجرات: ١١]. فهذه الأوامرُ الخُلقيّةُ تُضيءُ خلفيّةً ثقافيّةً كانَت فيها السُّخريّةُ من الأسماءِ والمَظاهرِ شائعةً، تُستخدَمُ للانتقاصِ من قيمةِ الإنسان، ولتَرسيخِ التَّسلسُلِ الطَّبقيِّ عبرَ الازدراءِ. فالاسمُ، واللِّباسُ، واللَّونُ، واللَّهجةُ، والمِهنةُ... كانَت كلُّها

مادّةً للاستهزاءِ؛ لأنَّها تُستعمَلُ رموزًا تمُكِّنُ المُتكبِّرَ من الحفاظِ على شعورِه بالتفوُّق.

وقد تكرَّرَت مَواقفُ فيها استهزاءٌ من مظهرِ الأنبياءِ أو المُؤمنينَ، كما في قول (فرعونَ): ﴿**أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾؟ [الزخرف: ٥٢].

هنا، يُصنَّفُ النبيُّ مُوسى عليه السلام عبرَ معيارَين سَطحيَّين: الهيئة الاجتماعيّة (مَهين)، والبلاغة الظّاهرة (ولا يَكادُ يُبينُ). وهكذا، فإنَّ السُّخريّةَ تنصرفُ عن رسالته، وتُهاجِمُ مَظهرَه ولِسانَه، ليُقال للنّاس: كيفَ يمُكنُ لمثله أن يَحملَ الوَحيَ؟ فيُستبدَلُ سؤالُ الحَقيقة بسُؤال الصُّورة، وتُقدَّم النبوّةُ كأنَّها وظيفةٌ مُرتبطةٌ بحُسنِ الهَيئة ونُطق اللِّسان.

وتُشيرُ سورةُ الحُجرات إلى مشهد اجتماعيّ يُعمِّقُ هذا المَعنى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾ [الحجرات: ١١].

فهُنا، يُنهى عن السُّخريّة بوَصفها انتهاكًا لكرامة المُؤمنينَ من خلال الهَيئة الظّاهرة، ويَتضمَّنُ ذلك: اللِّباسَ، واللُّغةَ، والطَّبقةَ، والهَيئةَ البَدنيّةَ. إنَّ النَّهيَ لا يَصدرُ من فراغ، ويَكشفُ عن واقعٍ كانَ فيه الاستهزاءُ من الهيئة سُلوكًا مألوفًا، يُعبِّرُ عن ذهنيّة تَعتبرُ المَظهرَ عُنوانًا للقيمة، وتَمنحُ الذّاتَ المُتكبِّرةَ شُعورًا مُؤقّتًا بالتَّفوُّق. وهذا تمامًا ما فعلَه المُستهزئونَ بـ (النبيِّ محمّد) ﷺ حينَ قالوا: "ما لهذا الرَّسولِ يأكلُ الطَّعامَ ويَمشي

في الأسواق". فالرِّسالةُ هنا لا تُناقَشُ، بل يُهاجَمُ ظاهرُ حاملِها، فيُصبحُ الطَّعامُ والأسواقُ مادّةً للهُزءِ، مع أنَّ الأمرَين من طبيعة البَشر. لكنَّ المُستهزئَ لا يَبحثُ عن مَنطق؛ لأنَّ كلَّ ما يَهمُّه تقويضُ الرَّمز.

ومن اللّافت أنَّ هذا النَّوعَ من السُّخريّة يتوسَّلُ غالبًا بلُغة الجسد أو الإيماءات، كما في آية: ﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٣٠]، فهُم يُوظِّفونَ الإشارةَ، والنَّظرةَ، والضِّحكةَ الخَفيّةَ، لتكوين شبكة من المَعاني السّاخرة تُرسَلُ إلى الآخَرينَ دونَ أن تُعلنَ صَراحةً. وهذا يُكسبُ السُّخريّةَ طابعًا جَبانًا، لكنَّها أشدُّ إيذاءً؛ لأنَّها تُترَكُ مَفتوحةً على التّأويل، ويَصعبُ إمساكُ صاحبها بمَوقفٍ واضح، فتتحوَّلُ إلى سلاحٍ ثقافيٍّ يَوميٍّ يَنخرُ الإيمانَ من داخله.

ويُعدُّ اللِّباسُ أيضًا من الأدوات الرَّمزيّة التي وُظِّفَت في الاستهزاء، خصوصًا حينَ يَرتبطُ بسَمت تَعبُّديّ أو زُهدٍ ظاهريّ، فيُصبحُ ذريعةً للهُزءِ من التديُّن أو الاتِّهام بالرِّياء أو الجنون. إنَّ بعضَ الآيات القرآنيّةَ تُلمِّحُ إلى أنَّ المَظاهرَ التي يزهد فيها بعضُ الأنبياء أو أتباعُهم كانَت موضعَ سُخريّة؛ لأنَّ الثَّقافةَ الماديّةَ لا تَفهمُ البَساطةَ إلا بوَصفها علامةَ ضَعف. وهكذا، يتحوَّلُ اللِّباسُ – كما الجسد – إلى حقلٍ للتهكُّم؛ لأنَّه لا يُناسبُ المَعاييرَ التي رسمَتْها الطَّبقةُ السّائدةُ لمَظهرِ "الرَّجلِ المُعتبرَ".

ويَكمنُ الخطرُ في أنَّ هذا النَّوعَ من السُّخريّة – المُرتكزَ على الهَيئة –

يَسحبُ النِّقاشَ بَعيدًا عن الجَوهر، ويُقنِعُ الجمهورَ بأنَّ القضيّةَ ليسَت في "ما يُقال"، وإنَّما في "مَن يَقولُه"، و"كيفَ يَبدو؟"، و"ما يَلبسهُ؟"، و"هل صوتُه عالٍ أم مَنخفضٌ؟"، حتى تتضاءلَ المَسافةُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وتُلغى حدودُ النبوّةِ، وتتحوَّلُ الكلمةُ المُقدَّسةُ إلى تَفصيل هامشيّ في وَجه لا يُعجبُهم.

وهكذا نَرى أنَّ السُّخريّةَ من الجسد والهيئة في القرآن، هي أداةٌ مَدروسةٌ لقَتلِ الرُّموزِ عبرَ امتهانِ حَواملِها البَشريّة. إنَّها آليّةٌ تَغتالُ الرَّمزَ من الخارج، حتى لا يُتاحَ له الوقتُ للنَّفاذِ إلى الدّاخل.

■ المبحث الثاني: الطُّرفة السّاخرة والإيحاءات الرَّمزيّة

في معركة الرُّموز التي يَخوضُها الوحيُ ضدَّ الاستهزاءِ، كثيراً ما تقعُ المواجهةُ في تلكَ المساحاتِ الرَّماديّة من اللُّغة: التَّلميح، والطُّرفة، والإيحاء، واللَّعبُ بالألفاظ. فالمُستهزِئُ المُتمرِّسُ لا يُعلنُ رفضَه الصَّريحَ، ويُخبِّئُه في صورة ظاهرُها المزاحُ، وباطنُها تَقويضٌ للمَعنى. وهكذا تُصبحُ الطُّرفة السّاخرةُ أداةً رمزيّةً مُتخفِّيةً تَخترقُ النُّفوسَ دونَ إعلانِ حربٍ، وتُضحِكُ الجَماهيرَ وهي في الحقيقةِ تَسخرُ من الوَحي ذاتِه.

وقد نبَّهَ القرآنُ إلى هذا الطراز من التَّهكُّم الذي يَتجاوزُ التَّصريحَ إلى الترَّميز، وذلك حينَ قال -تعالى-: ﴿**وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾ [التوبة: ٦١]. فهُم لا يَقولون: "نرفضُكَ"، بل يَصوغونَ عبارةً ظاهرُها التَّهكُّم الخَفيفُ: "هو أُذُنٌ... يَسمعُ لكلِّ أحَدٍ"، لكنَّها في مضمونِها اتِّهامٌ له بعَدمِ التَّمييزِ، وبأنَّه لا يُفرِّقُ بينَ الصّادقِ والكاذبِ، فيُصبحُ النبيُّ في وَعيِ النّاسِ ساذجًا، وطيِّبًا أكثرَ من اللاّزمِ، ولا يُعتمَدُ عليه في حَسمِ الأمور. وبهذا، تُفرَّغُ شَخصيّتُه من سِماتِها النَّبويّةِ عبرَ طرفةٍ تَبدو للوَهلةِ الأولى غيرَ عُدوانيّةٍ، لكنَّها تُهينُ الرَّمزَ دونَ أن تُوجِّهَ سَيفًا مُصلتًا نحوَه.

وفي نموذجٍ آخَرَ، وردَ في سورة المُجادلة: ﴿**وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ**﴾ [المجادلة: ٨]. هنا، يَستبدلونَ التَّحيّةَ الشَّرعيّةَ بتَحيّةٍ مُزدوَجةِ المَعنى، ومُواربةٍ، وربمَّا مُلفَّقة، ومَلفوظة بأسلوبٍ ساخرٍ، ثم يَتساءلونَ تَهكُّمًا: "لولا يُعذِّبُنا اللهُ؟"، كأنَّهم يَقولونَ: ها نحنُ نَستهزئُ، فأينَ هذا العذابُ الذي تَوعَّدَ به؟ إنَّها سُخريّةٌ تتغذَّى ببُطءِ العقابِ، وتَبني ثِقَتَها من غيابِ الردِّ الفَوريّ، فتُحوِّلُ ذلك إلى نُكتةٍ وُجوديّةٍ تَسخرُ من المَبدأ نفسه.

وفي هذا النَّوعِ من الخطابِ تتحوَّلُ اللُّغةُ إلى ساحةِ استهزاءٍ مُرمَّزٍ، لا تُعلنُ نفسَها إلا لمَن يَفكُّ شيفرتَها. فيَتظاهرُ القومُ بالمُجاملة، ويَتكلَّمونَ بألفاظٍ مُضاعفةٍ، يَزعمونَ فيها المَديحَ، ويُخفونَ في بنيتِها تَحقيرًا رَمزيًّا.

وقد كان من أشهرِ أدواتهم في ذلكَ اللَّعبُ بالألفاظ الدِّينيّة، وتَحويلُ المُفرداتِ الشَّرعيّة إلى مادّة للهُزءِ. وأبرزُ مثال على ذلك ما جاءَ في قوله -تعالى-: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

فكلمةُ "راعنا" كانَت تُقالُ في ظاهرِها بمَعنًى: "انظُرْ إلينا، راعِنا السَّمعَ"، لكنَّها استُخدِمَت رَمزًا ساخرًا؛ إذ كانَت في بعض اللُّغاتِ تَحملُ مَعانيَ مُهينةً، فكانوا يَقولونَها بنَبرةٍ تهكُّميّة، تُوهِمُ النّاسَ بالتأدُّب، لكنَّها في بنيتِها اللُّغويّةِ تَنطوي على سخريّة خَفيّةٍ تُهاجِمُ النبيَّ وتُقلِّلُ من شأنِه.

وهنا تتجلَّى خطورةُ هذه الأداة: فالطُّرفة السّاخرةُ، في هذه السِّياقاتِ، وسيلةٌ لإعادة إنتاجِ الاستهزاءِ ضمنَ غلافٍ من المكرِ والازدواجِ، تَجعلُ من الطُّرفة خطابًا مُزدوَجًا: أحدُ وَجهَيه بَريءٌ، والآخرُ خبيثٌ. وهي أكثرُ الأدواتِ قدرةً على البَقاءِ؛ لأنَّها لا تُمسَكُ بسُهولة، ولا تُواجَه مباشرةً، ويُمكِنُ دائمًا إنكارُها بوَصفِها "مزاحًا" أو "سوءَ فَهمٍ" أو "دعابة ثَقيلة".

وقد أدركَ القرآنُ هذه البنيةَ، فواجَهَها بحَزمٍ؛ إذ إنَّ السُّخريّةَ المُتخفِّيةَ تُفسدُ الوَعيَ من داخله، وتُسمِّمُ جديّةَ العَلاقةِ بينَ المُؤمنينَ والوَحي دونَ أن تَرفعَ رايةَ العَداءِ المُعلَنِ. لذلكَ جاءَ النَّهيُ شَديدًا في قوله

-تعالى-: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وفي مَوضعٍ آخرَ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٨ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فهُنا لا يُقبَلُ التَّبريرُ؛ لأنَّ السُّخريّةَ حينَ تكونُ مُغلَّفةً بالطُّرفة، وتُمارَس باستمرارٍ، تتحوَّلُ من مَوقفٍ إلى مَنهجٍ، ومن دَعابةٍ إلى عُدوانٍ رَمزيٍّ على أساسِ العَلاقةِ معَ الله.

وما يَلفتُ النَّظرَ أنَّ القرآنَ في هذا المَوضعِ الأخيرِ، يَربطُ بينَ الطُّرفة والاستهزاءِ وبين الكُفر، بَعيدًا عن الغَضبِ العاطفيّ، من بابِ تَحديدِ خطورةِ الطُّرفة حينَ تُوظَّفُ لنَزعِ القَداسةِ عن المَبدأ، لا لإثارة الضَّحكِ المَشروعِ. فالسُّخريّةُ، وإنْ بَدأت بكلمةٍ عابرةٍ، تُصبحُ كُفرًا حينَ تكونُ قناعًا لرَفضِ المَعنى، واستهانةً بالقيمةِ، وتَجريدًا للرِّسالةِ من رَمزيّتِها.

إنَّ الطُّرفة السّاخرةَ، كما يُصوِّرُها القرآنُ، ليسَت سلوكًا لغويًّا ساذجًا، وإنَّما هي جهازٌ رمزيٌّ يَشتغلُ تحتَ الوَعي الجَمعيّ، يَنخرُ العَلاقةَ بينَ النّاسِ والدِّين، ويَزرعُ خِفّةً مُهلكةً في وجدان الجَماعة. ولذا فإنَّ مواجهتَها لا تكونُ إلّا بكَشفِ بنيتِها، وتَحليلِ آليّاتِها، وتَنمية وَعي قرآنيٍّ قادرٍ على تَمييزِ الدَّعابةِ من الطَّعنِ، والمزاحِ من السُّخريَّةِ المُتخفِّية.

■ المبحث الثالث: التَّهكُّم العلنيُّ والمَنابرُ المُجتمعيّة

إنَّ الاستهزاءَ بالأنبياءِ وأتباعِهم في القرآن الكريم، تَجاوزَ الفعلَ الفَرديَّ المعزولَ، فكثيرًا ما ظهرَ بوَصفِه نشاطًا علنيًّا مُنظَّمًا، تُمارَس فيه السُّخريّةُ ضمنَ فضاءاتٍ جماعيّةٍ مَعلومةٍ، تُحشَدُ فيها الجماهيرُ، وتُعاد فيها صياغةُ الوَعي عبرَ خطابٍ ساخرٍ مَكرور. فالتَّهكُّم حينَ يتحوَّلُ من ردِّ فعلٍ إلى عادةٍ ثقافيّةٍ تُمارَس في الأسواق، والمَجالس، والتجمُّعات، يُصبحُ أداةً من أدوات التّأثير الجَمعيّ، وأحدَ أقوى الأسلحة الرَّمزيّة ضدَّ الوَحي.

وقد وثَّقَ القرآنُ هذا البُعدَ العلنيَّ من الاستهزاء حينَ قال: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٨ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٨ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ**﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

فهُنا نحنُ أمامَ مَشهدٍ اجتماعيٍّ مُتكامل: الضَّحكُ يَحصلُ في العَلن، والتَّغامزُ يُمارَسُ في الطَّريق، والتَّعليقُ السّاخرُ يُنقَلُ إلى البيت كقصّةٍ فُكاهيّة، كأنَّ السُّخريّةَ حدثٌ ثقافيٌّ يَوميٌّ يُعادُ تَمثيلُه، ويُروى، ويُحوَّل إلى مُحتوًى لتَسليةِ النُّخبة.

وفي سورة ص، يَصفُ القرآنُ أحدَ مجالسِ قريشٍ التَّهكُّميّة بعبارة: ﴿**وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ**﴾ [ص: ٦]. هذا "الانطلاق" يُشيرُ إلى عملٍ جَمعيٍّ تَعبويّ، يُوجَّهُ فيه الجمهورُ

نحوَ مَوقف مُوحَّد من الرِّسالة الجَديدة، للسُّخريّة منها ومُقاومتها مُقاومةً رَمزيّةً. وفي هذا السِّياق، يكونُ السُّوقُ، أو مجلس الزَّعامة، أو مكان الاجتماع القَبليّ، هو المَسرحَ الأساس الذي تُلقى فيه العباراتُ السّاخرةُ، وتُصاغُ فيه الحكاياتُ المُحرَّفةُ، وتُوزَّعُ فيه التُّهمُ على النبيّ وأتباعه، بينَ شاعرٍ ومَجنونٍ وساحرٍ وكاهن. وهي تُهَمٌ لا تُثبَتُ ببرُهان، لكنَّها تُتداوَلُ بلَهجةِ السُّخريّة، فيُصدِّقُها النّاسُ دونَ أن يَسألوا عن أصلِها.

وفي سورة الأنعام، يُصوِّرُ القرآنُ مَشهدًا آخرَ أكثرَ فَجاجة: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣].

فالقولُ هنا يُصيبُ النبيَّ بالحزن، مع أنَّه ليسَ حقيقيًّا؛ لأنَّه يُقال في العَلن، ويُعاد على الألسُن، ويُحوَّلُ إلى محتوًى يُشكِّلُ المزاجَ العامَّ، حتّى وإن لم يكنْ قائلُه يُصدِّقُه تمامًا. وهذا ما يَجعلُ الاستهزاءَ العَلنيَّ أكثرَ فتكًا من التَّكذيب المَنطقيِّ؛ لأنَّ السُّخريّةَ لا تَهدفُ إلى الإقناع، بل تَسعى إلى نَزعِ الهَيبة، وتَعليقِ الدَّعوة في فضاءِ التَّهكُّم العامِّ؛ بحيثُ لا يَعودُ النّاسُ قادرينَ على الإصغاءِ إلى المَعنى وسطَ ضَجيجِ الضَّحك.

وفي لحظةٍ أُخرى، يُشيرُ النصُّ القرآنيُّ إلى فئة تتَّخذُ من المجالس منبرًا للسُّخريّة المُبطَّنة، فيقول: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ**

﴿يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

فالمجلسُ هنا هو مَجلسُ خَوضٍ لا نِقاشٍ، أي ثرثرةٍ تهكُّميّةٍ تُحوِّلُ الآياتِ إلى مادةٍ للتَّشكيكِ والسُّخريّة، ويتحوَّلُ الحضورُ إلى شركاءَ صامتينَ في هذا التَّهريجِ الرَّمزيّ. ولذا فإنَّ القرآنَ لا يَكتفي بالنَّهي عن المُشاركةِ الفَعليّة، وإنَّما يُحرِّمُ حتّى الجلوسَ السَّلبيَّ في تلك الأوساط، لأنَّها تُحوِّلُ الاستهزاءَ إلى عُرفٍ مُجتمعيّ لا يَعترضُ عليه أحدٌ.

وقد وردَ في بعض التَّفاسيرِ أنَّ من أشدِّ صُورِ الاستهزاءِ العَلنيّ تلكَ التي كانَت تُمارَسُ في مواسمِ الحجّ، حينَ كانَ بعضُ سادةِ (قُريش) يَطوفونَ بالكعبةِ مُردِّدينَ ألفاظًا تَهكُّميّةً بحقِّ (النبيّ محمّد) ﷺ، أو يُحرِّضونَ الوافدينَ من خارجِ مكّةَ على الحذرِ منه، أو على الاستماعِ له بهَدفِ الضَّحكِ لا الاعتبار. وهكذا، تتحوَّلُ الأماكنُ المُقدَّسةُ إلى منابرَ للتَّهكُّم، ويتحوَّلُ موسمُ العبادةِ إلى مَوسمِ تَحقيرٍ رَمزيّ، تُعادُ فيه صياغةُ النبوّةِ بوَصفِها ظاهرةً فُكاهيّةً، لا رسالةً وُجوديّة.

وقد أشارَ القرآنُ إلى بعضِ الشَّخصيّاتِ التي مارسَت هذا الدَّورَ التَّهكُّميَّ المُجتمعيَّ، بوَصفِهم "الذينَ يُؤذونَ النبيَّ"، دونَ أن يَحملوا سَيفًا، وذلكَ عبرَ الألسُنِ والمَجالسِ والتَّعليقات. هؤلاءِ كانوا غير عَقلانيِّينَ، أصحابَ نُكتةٍ، وصياغاتٍ ساخرة، وقُدرةٍ على تحويلِ الهالةِ إلى هَزل. وكانوا أخطرَ من المُعارضينَ الصُّرَحاء، لأنَّهم يُفكِّكونَ النبوّةَ من داخلِ الجَماعة، ويَجعلونَ النّاسَ يَضحكونَ بدلَ أن يتفكَّروا.

■ المبحث الرابع: التَّحريف الرَّمزيّ للكلمات والشِّعارات "راعِنا" نَموذجًا

في بعضِ مراحلِ الصِّراعِ الرَّمزيّ، بينَ الحقِّ والباطلِ، يبتعدُ الاستهزاءُ عن الظُّهورِ الصَّريح، ويتَّخذُ هيئة لغويّة ماكرة تُمارَسُ داخلَ مَساحةٍ رمزيّة دقيقة: الكلمة الواحدة. حينَ يُفرَّغُ اللَّفظُ من مَعناهُ الشَّريفِ، ويُعادُ شَحنُه بدلالةٍ مُستهزئة، أو حينَ تُنطَقُ الكلمةُ ذاتُها بنَبرةٍ مُزدوجةٍ تَحملُ في طيّاتِها التَّهكُّمَ، يُصبحُ اللِّسانُ نفسُه أداةَ استهزاءٍ دونَ أن يتغيَّرَ ظاهرُ العبارة. وهذا ما يُمكن تسميتُه بـ»التَّحريف الرَّمزي»، وهو أخطرُ من السُّخريّةِ المُعلَنة؛ لأنَّه يَتخفَّى في ثياب اللُّغةِ المألوفةِ، فيَبدو بَريئًا، على حين يَعملُ على تقويضِ القَداسةِ من الدّاخلِ.

وقد سجَّلَ القرآنُ هذا النَّوعَ من الاستهزاءِ في مَشهدٍ دَقيقٍ جاء فيه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ**﴾ [البقرة: ١٠٤]. فللوَهلة الأولى، يَبدو أنَّ الكلمةَ "راعِنا" تَعني أنَّهم لا يَشتمونَ، وإنَّما يُحرِّفونَ الكلمةَ على مُستوى النيّةِ والنُّطقِ والدَّلالة، فيَجمعونَ بينَ المكرِ اللُّغويِّ والاستهزاءِ الرَّمزيّ. وهنا تَبلغُ السُّخريّةُ ذروتَها: أن تَقول الكلمةَ الصَّحيحةَ بنَبرةٍ باطلةٍ، أن تُجريَ لسانَكَ على ظاهرِ الأدبِ، وقلبُكَ يَعجُّ بالسُّخريّةِ، وأن

تُخفِيَ الضَّحِكَ وراءَ المَعنى المُتعدِّدِ، فتُربِكَ السّامعَ، وتُنقِّبَ في اللُّغةِ لتَصنعَ منها أداةَ تهكُّمٍ ذكيّة.

وقد علَّقَ القرآنُ على هذا الفعلِ، بصفته فعلاً إفساديًّا مُستحقًّا للعَذاب: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه تَحريفٌ مَقصودٌ لمَعاني الوَحي، وإعادةِ تأويلٍ ساخرٍ للكلماتِ التي بُنيت عليها العلاقةُ بينَ النبيِّ والمُجتمع. وبذلكَ، فإنَّ السُّخريّةَ أصبحَت تَقعُ -فضلاً عن الخطابِ- في المُفرَدة، وطريقةِ نُطقِها، ومَعناها المُزدوَجِ، والاستعمالِ الذي يُخفي النيّةَ الحَقيقيّةَ خلفَ ستارِ الأدبِ الظّاهريّ.

وهذا النَّموذجُ يَكشفُ لنا جانبًا خطيرًا في مُعجمِ المُستهزِئ:

إنَّه يَستعملُ كلماتِ الوَحي نفسِها، ثم يُعيدُ تَوجيهَها داخلَ بنياتٍ ثقافيّةٍ مُزدوجة، فيَستعملُ "راعِنا"، ليَرميَ التُّهمةَ، لا ليَطلُبَ الرِّعايةَ، ويَستعملُ "آمنّا" ليُبطِنَ الكُفرَ، لا ليُعبِّرَ عن الإيمان، ويَستعملُ التَّحيّةَ للوُصولِ بها إلى الأذى الرَّمزيّ، لا ليُظهرَ المَودّةَ. وهنا، تتحوَّلُ اللُّغةُ من وسيلةِ تَواصُلٍ إلى سلاحِ تَفكيكٍ خَفيّ، لا يُظهرُ نتائجَه إلا بعدَ أن تَنتشرَ العَدوى، وتُصبحُ الكلمةُ، التي كانَت في أصلِها مُحترمَةً، مُحمَّلةً بالتَّهكُّم، تُثيرُ الضَّحكَ كلَّما نُطقَت، بدلَ أن تُوقظَ الخُشوعَ.

والمُلاحَظُ أنَّ القرآنَ نَهى عنِ الكلمةِ المُبطَّنة، وقَدَّمَ بَديلاً لها: "وقُولوا انظُرْنا". وهذا يَدلُّ على أنَّ العلاجَ القرآنيَّ للاستهزاءِ الرَّمزيّ يُسارِعُ، بعدَ كَشفِه، إلى بناءِ خطابٍ بَديلٍ، يَحفظُ القَداسةَ، ويَقطعُ الطَّريقَ على

السُّخريّة؛ لأنَّ تركَ الكلمة كما هي، معَ ما عَلِقَ بها من رَمزيّةٍ مُهينة، يُعطي المُستهزئَ ساحةً يُعيدُ من خلالِها تَحريفَ المَعنى، وإفسادَ الأثرِ النَّفسيِّ للخطابِ النبويّ.

وفي ضوءِ هذا النَّموذجِ، يمُكنُنا أن نَفهَمَ كيفَ تَنتقِلُ المَعركةُ الرَّمزيّةُ من المَفاهيمِ الكُبرى إلى التَّفاصيلِ الدَّقيقة: من النبوّةِ إلى اسمِ النبيِّ، ومن الخطابِ إلى أسلوبِ النُّطقِ، ومن المَوقفِ إلى الإيماءةِ، ومن الشِّعاراتِ إلى تَحويرِ الألفاظ.

وهنا، يَثبُتُ أنَّ القرآنَ نَصٌّ يُدافِعُ عن نفسِه بالعَقيدة، ويَحمي رَمزيّتَه على مستوى الكلمة، والنَّغمة، والدّلالة، والسِّياق؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ المُستهزئَ، حينَ يُعجزُه إسقاطُ الوَحي بالمُواجهة، سيَسعى إلى تَفكيكِه من الدّاخلِ، عبرَ إفسادِ ألفاظِه وتَحويلِ لغتِه إلى مادّةِ هَزل.

وهكذا نكتشفُ أنَّ "راعِنا" تَجاوزَت مَفهومَ الكلمةِ المُفردة، لتُصبحَ حَربًا رمزيّةً على الكلمة، واختراقًا ناعمًا للهَيبةِ اللُّغويّةِ للوَحي، وسُخريّةً لُغويّةً مُقنَّعةً كانَ لا بدَّ من فَضحِها قبلَ أن تُصبحَ عُرفًا.

ولعلَّ جوهرَ هذا المَبحث يَكمنُ في أنَّ الاستهزاءَ حينَ يُمارَسُ عَلنًا، وعبرَ منابرَ مُجتمعيّة، يتحوَّلُ من فعلٍ فَرديٍّ إلى سُلطةٍ رَمزيّةٍ تَضغطُ على العُقولِ وتُشوِّهُ الذّائقةَ، وتَجعلُ من الوَحي ضَيفًا ثَقيلًا على المَجالِ العامِّ، فيُمنعَ من التّأثيرِ؛ لأنَّ أدواتِ السُّخريّةِ سبقَت في السَّيطرةِ على الأذهان.

الفصل الخامس:

الردُّ القرآنيُّ على المُستهزئين

إذا كانت الفصولُ السّابقةُ قد ركَّزَت على تحليل بنيةِ الاستهزاءِ وأنماطه وأدواته، فإنَّ هذا الفصلَ يتَّجهُ إلى الجهة المُقابلة: كيفَ تعاملَ الخطابُ القرآنيُّ مع ظاهرة الاستهزاء؟ هل اختارَ الصَّمتَ، أم الردَّ، أم المُقاطعةَ، أم الحجّةَ، أم العُقوبة؟

إنَّ الذي يتأمَّلُ النَّصَّ القرآنيَّ يَجدُ الإجابةَ تَظهرُ في خطّةٍ متكاملة ذات مُستويات مُتداخلة، تتنوَّعُ بين الصَّبرِ، والتَّفكيكِ، والردِّ، والتَّحذير، والعقوبة، والتَّشهير، بحسب السِّياق والمَوقف والحاجة. فلم يتعامل القرآن معَ السُّخريّةِ بوَصفها مزحةً هامشيّة، وإنَّما بوَصفها فِعلاً مقصودًا، له أثرٌ رمزيٌّ خطيرٌ على بنية الإيمان الجماعيِّ، ولذلك كانَت المُواجَهةُ القرآنيّةُ مدروسةً في مَنطقِها، وتَربويّةً في خطابها، ومُزلزِلةً في عاقبتِها.

■ المبحث الأول:
الصَّبرُ والاحتساب
الاستعلاء الإيمانيُّ في وجه السُّخريّة

في المراحلِ الأولى من البعثةِ النبويّة، كان الاستهزاءُ هو السِّلاحَ الأكثرَ استخدامًا من قِبَلِ خصومِ الرِّسالة، وكان يَظهر في كلِّ صورةٍ مُمكنة: سخريّة من الوحي، من النبيّ ﷺ، والمُعجزة، والآيات، والألفاظ. لكنَّ اللاّفتَ أنَّ القرآنَ، بَدلاً من أن يُعلنَ المُواجَهةَ العَنيفةَ أو الردَّ اللَّفظيَّ بالمِثلِ، اختارَ مَنهجًا بالغَ النُّضجِ: الاستعلاء الإيماني بالصَّبر والاحتساب، بوصفه قيمة وجوديّة تَرتفع فوق هوانِ السُّخريّة.

قالَ -تعالى-: ﴿**وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا**﴾ [المزمل: ١٠]، إنَّ الأمرَ بالصَّبرِ يَشملُ الصَّبرَ العاطفيَّ، ويَسعى إلى أبعَدَ من ذلك لبناءِ حالةٍ داخليّةٍ قادرةٍ على امتصاص السُّخريّة دونَ الانكسارِ، وعلى الردِّ بالإعراضِ لا بالانفعالِ. «هَجرًا جَميلاً» يَعني مقاطعةً راقية، وانسحابًا من ساحةِ التَّهريجِ إلى ساحةِ المعنى، والتَّعالي عن منطقِ السَّبِّ وأفعالِ الانتقامِ. هذا الردُّ قد يبدو في ظاهرِهِ مَشوبًا بالضَّعف، لكنَّه في الحقيقةِ تَجلٍ لقوّةِ النَّفس المُؤمنةِ التي تَعرفُ أنَّ الكلمةَ أبلغُ من الصُّراخِ، وأنَّ المَعنى أرفعُ من المَهزلة.

وفي موضعٍ آخرَ، قال سبحانَه لنبيِّه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]. الضِّيقُ هنا شعورٌ إنسانيٌّ مَشروعٌ تُجاهَ التَّحقيرِ المُستمرِّ، ومع ذلك، فإنَّ العلاجَ القرآنيَّ لا يكون بالردِّ، بل بإعادة ربطِ النَّفسِ بالمَصدرِ الأعلى للمَعنى: التَّسبيح والسُّجود. كأنَّ القرآنَ يَقول: "دَعْهُم يَسخرونَ... أنتَ لديكَ نافذةٌ على الله". وهذا التَّحوُّلُ من ساحة الاستهزاءِ إلى ساحة التعبُّد يُعيدُ تَرتيبَ الأولويّاتِ في النَّفسِ، ويَجعلُ الصَّبرَ فِعلاً نَشطًا لا خُمولاً، وعبادةً واعيةً لا استسلامًا.

ولم يَقتصر تَوجيهُ الصَّبرِ على النبيّ وحدَه، فقد خُوطِبَ به عمومُ المُؤمنينَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. هذا الردُّ أكثرُ حَسمًا من الشَّتيمة، وأكثرُ أثرًا من الغَضب. إنَّه ردُّ الوَعي: نحنُ نَعرفُ مَن نَحنُ، ونَعرفُ أنَّ السُّخريّةَ لا تُغيِّرُ الحَقيقةَ، وأنَّ مَن يَسخر لا يَستحقُّ الجوابَ، وإنَّما الإعراض الكامل الذي يُفقدُ سخريّتَه وقودَها الوَحيد: التَّفاعل والانفعال؛ لأنَّ السُّخريّةَ، حينَ لا تجدُ مَن يَغضبُ، تَفقدُ قوّتَها وتَذبلُ.

ولعلَّ أبلغَ تجلِّيات هذا النَّهج ما وردَ في قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥]. فهو يأمرُ النبيَّ بقوّة: "اصْدَعْ"، أي اجهَرْ بما تُؤمَرُ، دونَ أن تَلتفتَ للمُتهكِّمينَ؛ لأنَّ مهمّةَ الردِّ عليهم ليسَت عَليكَ، لأنَّ اللهَ تعالى تكفَّلَ بذلك: "إنّا كَفيناكَ

المُستهزئينَ". وهذه الكفايةُ الرَّبانيّةُ فيها وعدٌ بالعُقوبة للمستهزئينَ، وطمأنينةٌ وُجوديّةٌ تُنهي القلقَ من فعلِ السُّخريّة، وتُعيدُ للنبيّ ﷺ تركيزَه على ما هو أهمُّ: البلاغ، لا التَّفاعل.

إنَّ هذا النَّهجَ القرآنيَّ في مواجهة الاستهزاءِ بالصَّبرِ والاستعلاءِ هو استراتيجيّةٌ تربويّةٌ لصناعة الذّات المُؤمنة المُقاومة للسُّخريّة، والمُتجاوزة للأذى، والمُتعالية على الهَزل، والمُنصرفة إلى المَعنى. فالقرآنُ، حينَ يُعلِّمُ النبيَّ ﷺ أنْ يَصبرَ، يَطلبُ منه التحمُّلَ، كما يَطلبُ منه أنْ يَرتفعَ فوقَ السُّخريّة، لا أنْ يَغوصَ في وَحلِها، وأنْ يُبقيَ عينَه على الغايةِ لا على الغَوغاء. وهكذا يكونُ الصَّبرُ في القرآن، في مُواجهة المُستهزئ، قيمةً وُجوديّةً كاملةً، لا سُلوكًا مُهادنًا، تُبنى عليها الصَّلابةُ الإيمانيّةُ، وتُعزَلُ بها السُّخريّةُ في هامشٍ لا تأثيرَ له على سَيرِ النبوّة.

■ المبحث الثاني: الردُّ بالحجّة والبرهان تفكيك منطَق السُّخريّة

رغم أنَّ القرآنَ دَعا إلى الصَّبر والاحتساب في مواجهة المُستهزئينَ، لكنَّه لم يَكتفِ بذلك؛ حيث سَلكَ طَريقًا مُوازيةً لا تقلُّ قوّةً عن الصَّبر، وتَعكِسُ وَجهًا آخرَ من وجوهِ القوّةِ القرآنيّة: الردُّ بالحجّة، وتفكيكُ

المَنطقِ السّاخرِ من داخله، والاشتغالُ على بنية الخطابِ التَّهكُّميّ لنَقضه بالكلمة الهادئة، والبيانِ المُحكَم، والحِجاجِ الصَّبور.

إنَّ المُستهزِئَ يَعتمِدُ في سلاحه على الضَّحكِ لا البُرهان، وعلى التَّحوير لا التَّفسير، وعلى تَسخيفِ المَعلومةِ لا مناقشتها. ومن هنا، فإنَّ المُواجهةَ الحقيقيّةَ تَبدأُ حينَ يُجبَرُ على مواجهةِ منطقه المُتهرِّب، ويُستدرَجُ إلى ساحةٍ لا يُجيد اللَّعبَ فيها: ساحة السُّؤال الصَّريح، والجواب العقلانيّ، والمُفرَدة المُحكَمة.

وقد كشفَ القرآنُ هشاشةَ مَنطقِهم حينَ حَكى أقوالَهم وردَّ عليها بأسلوب التَّفكيك الهادئ، البعيد عن الانفعال. قال -تعالى-: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحجر: ٦]. ثم قال: ﴿**مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۸ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٢-٤].

هنا، لا يُقابَلُ الاتِّهامُ بالجنون بصُراخٍ أو استنكار، وإنَّما يُقابَل بإعادة رسم صورة النبيِّ ﷺ أمامَ ذاته وأمامَ النّاس، بما يَشهَدُ به اللهُ، لا بما يَقولُه المُستهزِئون. فيتحوَّل الهجومُ إلى فرصة لتَثبيت الصِّفات الحَقيقيّة: أنت عاقل، ومُؤمن، وخَلوق، ومأجور. وهكذا، تُفرَّغُ تُهمةُ الجنون من أثرها دونَ أن تُذكَرَ مُباشرةً؛ لأنَّها انهارَت تحتَ ثِقَلِ الحَقيقة التي يُثبتها النصُّ بوضوحٍ وجَلال.

وفي موضعٍ آخَرَ، يَسخَرُ المُشركونَ من البعث، ويقولون: ﴿**أَءِذَا مِتْنَا**

﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]. فيأتي الردُّ بصيغة عَقليّة تَسبرُ عمقَ الإنكار التَّهكُّمي: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١].

إنَّ السُّخريّةَ هنا كانت محاولةً لتَسخيف الفكرة: "بعث بعد العظام؟! مُضحك!" لكنَّ الردَّ كانَ بإعادة تعريف المَنطق نفسه: مَن خلقَكُم أوَّلَ مرّة قادرٌ على أن يُعيدَكُم. فإذا كان الخَلقُ الأوَّلُ غيرَ مُثيرٍ للضَّحك، فما الذي يُضحكُ في الإعادة؟ وهنا تتفكَّكُ السُّخريّةُ؛ لأنَّ ضَحِكَها كان نتاجًا لكسلٍ في التأمُّل، لا لنَقضٍ فعليّ للفكرة.

وقد استخدمَ القرآنُ أحيانًا أسلوبَ قلبِ الطّاولة، حينَ واجَهَ طرفة السّاخر بنُكتة مُعاكسة تكشفُ سخفَ مَنطقه، كما في قوله -تعالى-: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

فكلمةُ "زَعَمَ" تَحمل في طيّاتها نبرةً تهكُّميّةً خَفيفةً من ادِّعائهم، وتكشفُ أنَّ قولَهم نفسَه لا يَحملُ يَقينًا، وهو مجرَّدُ "زعم"، أي ادِّعاء لا أساسَ له. وهكذا يُسحَبُ سِلاحُ السُّخريّةِ منهم، ويُحوَّل إلى مرآةٍ تُظهرُ هشاشتَهم.

ومن الأمثلة البَليغة في الردِّ الحواريّ، ما وردَ في مشهد الحوار معَ (فرعونَ)، حينَ قال لـ (موسى) عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى

﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، فجاء ردُّ (موسى) عليه السلام: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾؟ [الشعراء: ٣٠].

هنا يَبدو (موسى) عليه السلام هادئًا غيرَ مُبالغٍ في الرَّدِّ، ومحوّلاً التَّهديدَ إلى سؤالٍ مَنطقيٍّ يَفضحُ طبيعةَ السُّلطةِ التي لا تَعترفُ إلا بالقوّة. فإذا جئتُكَ بحجّة، هل تَقبلُها؟ وإذا كانَت النبوّةُ بُرهانًا، فهل سَجنُكَ دليلٌ؟ هذا الردُّ يُحاصِرُ التَّهكُّمَ داخلَ أسئلتِه، ويَجعلُ مِن كلِّ نكتةٍ سياسيّةٍ بابًا للانكشاف.

والأجملُ من ذلك، أنَّ القرآنَ استعمَلَ الردَّ بالحجّةِ على المُستهزئ، ليُظهرَ للسّامعينَ أنَّ السُّخريّةَ ليسَت إلا صوتَ العَجز، وأنَّ المَعنى أقدَرُ على البقاء من الطُّرفة العابرة؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٨].

إنَّهم يَضربونَ الأمثالَ للسُّخريّةِ منها، لا لإظهارِ الحقيقة. والردُّ عليهم جاءَ بالنَّظرِ: فقط انظُر؛ لأنَّ مَن يمُعِنُ النَّظرَ يَرى السُّقوطَ دونَ حاجةٍ إلى ضَجيج.

وهكذا تتَّضِحُ استراتيجيّةُ القرآن: ألّا يُستفَزَّ من الضَّحك، وألّا يُواجَهَ العَبثُ بالعَبث، وأن يُعيدَ تَعريفَ المَعاني، ويُفكِّكَ منطقَ السّاخرِ بهُدوء، ويَكشِفَ ضَحِكَهم بوَصفِه قِناعًا للجَهلِ أو الهربِ أو الخوفِ من المَعنى.

فالردُّ القرآنيُّ بالحجّةِ يكون خاليًا من الضَّجيجِ والصُّراخ، ويَنزعُ

من المُستهزئِ سلاحَه دونَ أن يَشعرَ، حتى يُواجِهَ نفسَه أمامَ عقلٍ لا يَضحك، بل يتفكَّر.

■ المبحث الثالث:
العقاب الرَّبانيُّ
المآل الحتميُّ للسُّخريّة من الحقّ

السُّخريّةُ من الأنبياءِ والآياتِ في القرآن ليسَت فِعلاً يُقابَلُ دائمًا بالصَّفحِ، ولا حالةً عابرةً يُكتفى في الردِّ عليها بالمَوعظةِ أو التَّجاهُلِ. فحينَ تتجاوزُ السُّخريّةُ حدَّ التَّهكُّمِ اللَّفظيّ، وتتحوَّلُ إلى مشروعٍ مُنظَّمٍ لعَرقلةِ الوَحي وتَفريغِ رسالتِه من رَمزيّتِها، فإنَّ الردَّ القرآنيَّ لا يَبقى في حدودِ الحِوارِ والاحتسابِ؛ إذ يَنتقلُ إلى مستوى العقابِ الإلهيِّ الآنيِّ، حينَ تتجاوزُ السُّخريّةُ الانحرافَ في الذَّوقِ، وتتحوَّلُ إلى تمرُّدٍ على قداسةِ الوَحي، وكفرٍ عمليٍّ به، واعتداءٍ رمزيٍّ على الله ورسلِه.

وقد وردَ هذا الردُّ الحاسمُ في أكثرَ من موضعٍ، بصِيَغٍ تتراوحُ بينَ الوَعيد، والتَّنفيذ، والتَّذكير بما جَرى للأقوامِ السَّابقة. قال -تعالى-: ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [الأنعام: ١٠].

إنَّ هذه الآيةَ تُسجِّلُ حادثةً تاريخيّةً، ولكنَّ الأهمَّ أنَّها تضعُ قاعدةً

قرآنيّةً ثابتةً: أنَّ سخريّةَ الباطلِ من الحقِّ لا تمرُّ دونَ حسابٍ، وسوف تعودُ على أصحابها بحَصادٍ مرٍّ، هو من جنسِ ما زَرعوا. لقد سَخِرُوا من الوَحي، فرَدَّت عليهم السُّننُ الإلهيّةُ بما يُجسِّدُ سُخريّتَهم في صورةِ هَلاكٍ: الطُّوفان، والصَّيحة، والخَسف، والذلّ المَعنويّ والهوان الرَّمزيّ. فكما أرادوا إهانةَ الرَّمزِ، أُهين وجودهم، حتّى غدَوا عبرةً.

وفي مشهدٍ آخَرَ من مشاهدِ المُواجَهة، قال -تعالى-: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٨ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٨ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٤].

هنا يتجلّى التحوُّلُ التامُّ: السُّخريّة التي كانَت فِعلاً دنيويًّا صاعدًا من الكفّار نحوَ المُؤمنينَ، تُصبحُ في يوم القيامةِ مَقلوبةَ الاتِّجاه، ويَضحكُ المُؤمنونَ من أولئكَ الذينَ استهزؤُوا بهم بالأمسِ. لكنَّ هذا الضَّحكَ ليس انتقامًا سَطحيًّا، وإنَّما هو تجلٍّ عَدليٌّ لعاقبةِ السّاخرينَ الذينَ ظَنُّوا أنَّ ضَحِكَهم على الإيمانِ دليلُ عُلوٍّ، فإذا به يَسقط عليهم عُقوبةً رمزيّةً أبديّة.

وقد بلغَ من خطورةِ الاستهزاءِ، أنْ جعلَ اللهُ التَّلفُّظَ بالسُّخريّة – ولو على سبيلِ المزاحِ – سَببًا للكُفرِ بعدَ الإيمان، كما في قوله: ﴿**قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ**

﴿إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

إنَّ هذا التحوُّلَ من "الاستهزاء" إلى "الكُفر" يُعبِّرُ عن كَشفٍ لحقيقةٍ كامنةٍ في القَلب: مَن يَسخر من الله وآياته ورسوله فقد نَزعَ من داخله الاعترافَ بجلالِ هذه الرُّموز، وأحَلَّ مكانَها هَوى النَّفسِ وضَحكَ الهزل. وهكذا، تتحوَّلُ السُّخريّةُ من مزحةٍ إلى خطيئةٍ عَقديّةٍ؛ لأنَّها تُسقطُ قداسةَ المَعنى، وتُجرِّدُ العلاقةَ من هَيبتها.

وقد تَجاوزَ الرَّدُّ القرآنيُّ التَّهديدَ إلى العَذاب، الذي تجلَّى في وقائعَ مُحدَّدة. فقومُ (نوحٍ)، الذينَ سَخِرُوا من السَّفينة، غَرقُوا بماءِ السُّخريّةِ ذاتها. وقومُ (لوطٍ)، الذينَ استهزؤوا من دعوةِ الطَّهارة، قُلِبَت عليهم المَدينةُ. و(فرعونُ)، الذي تهكَّمَ بـ (مُوسى) عليه السلام وأوصافه، أُغرِقَ في البَحرِ، فكانَ هلاكُه رَدًّا على سُخريّته لا على سِلاحه. إنَّ العقوبةَ، في منطقِ القرآن، هي وسيلةُ رَدعٍ، ورَدٌّ رمزيٌّ مُتناغِمٌ مع بنيةِ الذَّنب: مَن سَخِرَ، سُخِرَ منه، ومَن عَبثَ، أصبحَ مادّةً للعَبث، ومَن استعلى، سُحِقَ تحتَ صخرةِ الاستهزاءِ الإلهيّ به.

وهذا ما يَجعل العقوبةَ الرَّبانيّةَ للمُستهزئينَ امتدادًا لسياقِ الفعلِ الذي بدؤوا به. فالسُّخريّةُ، حينَ تكون من آياتِ الله، لا تُنسى، ولا تَسقطُ بالتَّقادُم؛ لأنَّها ليسَت مَوقفًا اجتماعيًّا، وإنَّما هي خيانةٌ رَمزيّةٌ تُستدعى يومَ القيامةِ بوَصفِها وثيقةً ضدَّ صاحبها. وقد أشار القرآنُ إلى هذا في تصويرِ مَشهدٍ من مشاهدِ الآخرة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ**

﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٨ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

فأولئكَ المُستهزئونَ، وإن بَدا أنَّهم انتصروا لحظةً، فإنَّ الغَيَّ يَستمرُّ، حتى يُستنزَفوا في دائرةٍ لا يُفلتُهم منها إلا الحسابُ الإلهيُّ الذي يُعيد تَرتيبَ القيَم، ويَكشفُ أنَّ الضَّحكَ في الدُّنيا ما هو إلّا علامةٌ على عَجز وجوديّ عَميق، يُقابلُه ضَحكٌ آخَرُ في الآخرة، فيه كلُّ العَدل، وليسَ فيه سُخريّةٌ.

ومن هُنا نَفهم أنَّ العقابَ الرَّبانيَّ في وجهِ السُّخريّة ليس عقابًا لضَحكٍ بَريءٍ، وإنّما هو عِقابٌ لعِصيانٍ ساخرٍ، وهَدمٍ رَمزيٍّ للقِيَم، واستكبارٍ على المَعنى، وسَعيٍ إلى تَفريغِ الوَحي من جدِّيته. وهو عقابٌ يَستدعي في الذّاكرة القرآنيّة تاريخًا طَويلًا من الأمم التي سقطَت؛ لأنَّها سَخرَت واستعلَت بالضِّحكِ على الوَحي، فابتلعَتْها جدِّيةُ العَدلِ الإلهيّ.

■ المبحث الرابع: تَحويل الاستهزاءِ إلى حسرة يوم القيامة

في عالَمِ الآخرة، حيثُ تُكشَفُ السَّرائرُ وتُوزَنُ النَّوايا، يُستَدعى الاستهزاءُ بكلِّ رَمزيّته ومَقاصده، ليُقدَّمَ وَثيقةَ إدانة، ويُحوَّلَ إلى أداة عذابٍ نَفسيّ يُعاني بها المُستهزئُ ذاتُه ما أنزلَه بالأنبياء عليهم السلام وأتباعهم. فالسُّخريّةُ، التي كانَت سلاحًا ساخِرًا في الدُّنيا، تُصبحُ في الآخرة مِرآةَ

حَسرةٍ، وسَيفًا يَعودُ إلى نحرِ صاحبه، وضَحكًا يَنقلبُ بكاءً لا يَنقطعُ.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؟ [المطففين: ٣٤-٣٦].

هنا تتبدَّلُ المَواقعُ تبدُّلاً جَوهريًّا: من ضَحِكِ الظَّالمِ على المُؤمنِ، إلى ضحكِ المُؤمنِ على الظّالمِ. لكنَّ هذا الضَّحكَ لَيسَ شَماتةً، وإنَّما هو تَجلٍّ عدليٌّ يُظهرُ أنَّ اللهَ لا يَنسى الأذى الرَّمزيَّ الذي مُورِسَ على أوليائه. فالاستهزاءُ ليسَ فعلٌ يَبدأُ بضحكة، ويَنتهي في الجَحيم؛ لأنَّه يَعكِسُ استخفافًا بالقيَمِ المُقدَّسة، واستهانةً بالمُقدَّسِ، وتمَرُّدًا صامتًا على الجديّة الوُجوديّة.

وفي آيةٍ أُخرى، يُصوِّرُ القرآنُ تلكَ اللَّحظةَ التي يُعرَضُ فيها المَشهدُ القَديمُ على المُستهزئينَ، فيُقال لهم:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]. لقد كانوا في الدُّنيا يَسخرونَ من الضُّعفاء، ويَستبعِدُونَ أن يَرحمَهُم اللهُ، فإذا بهم يَرَونَهم في الجنّة. وهذه المُفارَقةُ تَصعَقُ نفسَ المُستهزئ، وتَجعلُه يُواجهُ مرآةَ احتقاره القَديم في صورةٍ خَيبةٍ أبديّة. إنَّها حسرةٌ مُضاعَفةٌ: أن تكتشفَ أنَّ مَن سَخِرتَ منه هو النّاجي، وأنَّ ضَحِكَكَ السّابقَ قد كلَّفَكَ الخلودَ في العذاب.

وهذه الحَسرةُ لا تُصوَّرُ فقط بالنَّدم، بل تُعاشُ واقعةً مُهينةً. فالقرآنُ يُعيد رسمَ ضَحِكِهم في الدُّنيا، لا ليُحاسِبَهُم على الصَّوتِ، وإنَّما ليُواجِهَهُم

بالصُّورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٨ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٨ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٨ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢].

إنَّه تَسجيلٌ تَفصيليٌّ لعباراتهم، كأنَّ القيامةَ تَستحضِرُ التَّسجيلاتِ المُهينةَ التي كانَت تُلقى في الأسواقِ والمَجالسِ، لا لتُسجَّلَ في أرشيفِ النِّسيان، وإنَّما لتُعرَضَ في ساحةِ الحقِّ، وتُجعَلَ مادّةً للفَضيحة، وحافزاً للحَسرة، وخنجرًا من النَّدمِ يُغرَسُ في قلبِ السّاخرِ، وقدِ استُعيدَ ضَحكُه ليتحوَّلَ إلى بكاءٍ داخليٍّ لا يَسمَعُ إلا لَه.

ويَزيدُ القرآنُ من عُمقِ هذه العقوبةِ الرَّمزيّةِ حينَ يَربطُ بينَ استهزائهم بالأنبياء ﷺ، واستبدالِهم الجدَّ باللَّعب، فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

لقد ضَحِكوا من الوَحي؛ لأنَّهم رأوهُ لعبةً، واستهزؤوا من النبوّة؛ لأنَّها جديّةٌ أكثرَ من اللاّزم. فإذا بالحياةِ الجديّة الحقيقيّة تَبدأُ، وإذا بالضَّحكِ يَنقلبُ على أصحابه، ويُسحَبُ منهم النُّورُ، ويُمنعونَ من المُرافَعة، ويُواجَهونَ بأفعالِهم السّابقة كما لو أنَّها لوحاتٌ ثابتةٌ تُعرَضُ أمامَهم دونَ توقُّف، تُذكِّرُهم بكلِّ لحظةِ استهزاءٍ خَفيّةٍ أو عَلنيّة.

وهكذا، يتحوَّلُ الاستهزاءُ في عالَمِ الآخرةِ إلى عقوبةٍ نَفسيّةٍ مُتقنةِ البِناء، لا تُعذِّبُ الجسدَ وحدَه، وإنَّما تُعيدُ تَشغيلَ الذّاكرةِ المُهينة،

وتَفضحُ الاستخفافَ السّابقَ، وتُحوِّلُ كلَّ قَهقهةٍ قَديمةٍ إلى صدَى حسرةٍ لا يمُحى. وهذا ما يُعبِّرُ عنه بدقّة قولُه تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۸ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۸ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ**﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١].

فالسُّخريّةُ، التي كانَت تُطلَقُ بلا تَوقيعٍ، تُختَمُ على الوَجه، وتُعرَفُ من السِّيماء، وتُلقَى على أصحابها كما تُلقَى الحجارةُ على الآثمينَ.

والخلاصةُ أنَّ القرآنَ يُحوِّلُ الاستهزاءَ من حدثٍ لغويٍّ إلى قدرٍ أُخرَويٍّ، ومِن فعلٍ صَوتيٍّ إلى ذاكرةٍ مَلعونةٍ تُستحضَرُ أمامَ أصحابها ليَذوقوا منها كما أذاقوا غيرَهم. فالحسرةُ، في مَنطقِ القرآن، هي أكثرُ من شعورٍ بالنَّدم، إنَّها عقوبةٌ تُعيدُ صوتَ المُستهزئِ إليه في لحظةٍ لا يَستطيعُ فيها الضَّحِكَ، ولا يَملِكُ فيها مَفرًّا من صَداهُ القَديم.

الفصل السادس:

الاستهزاء أداةُ إفسادٍ رمزيّ

إذا كانَت السُّخريّةُ في الفصولِ السّابقة قد ظهرَت بوَصفِها فعلاً عَدائيًّا مُوجَّهًا إلى الأنبياءِ ﷺ وأتباعِهم، فإنَّ هذا الفَصلَ يَتجاوزُ تَوصيفَها سُلوكًا فرديًّا، ليرَصدَ تحوُّلَها إلى أداة بنيويّة تُستخدَمُ لهَدمِ المَعنى، وتفكيكِ الرَّمز، وإفسادِ القيَم من الدّاخل. فالقرآنُ يَكشفُ أنَّ المُستهزئَ يَسخَرُ من أهلِ الإيمان؛ لأنَّه يَعملُ ضمنَ مَشروعٍ رَمزيٍّ مُوازٍ، هدفُه إزاحةُ الوَحي من مركز القَداسة، وتَنصيبُ خطابٍ عَبثيٍّ بديلٍ يُحوِّلُ الجِديّةَ إلى تُهمةٍ، والإيمانَ إلى سَذاجةٍ، والنبيَّ إلى مادّةٍ للتهكُّم.

■ المبحث الأوَّل:
تَحطيم قداسةِ الرَّمز الإيمانيّ

حينَ ظهرَ (النبيُّ محمّد) ﷺ في مكّةَ، لم يَكنْ مُجرَّدَ مُصلحٍ اجتماعيّ أو ناصحٍ خُلُقيّ، وإنَّما كانَ رمزًا جديدًا يُعيد تَرتيبَ سُلَّمِ القَداسةِ في المجتمعِ بأسرِه. فبَعدَ أن كانَتِ القَبيلةُ هي المِعيارَ، والدَّمُ هو الرّابطَ، والزَّعامةُ هي

مَصدرُ الهَيبة، جاء النبيُّ ﷺ حاملاً وَحيًا يقول: «لا معيارَ إلّا التَّقوى».

وهكذا، بدأت السُّخريّةُ تتحوَّلُ من مَوقفٍ نَفسيٍّ إلى استراتيجيّة إفسادٍ رمزيّ، تَهدفُ إلى إسقاطِ القَداسة عن النبيِّ ﷺ، وتَشويه صورة الوَحي، وإفراغِ العِبادة من مَعناها، وتَسفيه المَفاهيم التي يَرتكزُ عليها الوَعيُ الإيمانيّ. قال -تعالى-: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحجر: ٦]، ﴿**وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٧].

إنَّهم لا يُناقِشونَ الأفكارَ، وإنمَّا يَتناولونَ صورةَ النبيِّ ﷺ بوَصفها رَمزًا، فيَسخرونَ من مشيته، وطعامه، ولباسه، وصوته، وبيئته، وكلِّ ما يمُكنُ أن يُستعمَلَ لتَفريغِ هالته الرَّمزيّة من مَعناها.

والمُفارقةُ أنَّ كثيراً من هذه السُّخريّات لا تَنفي النبوّةَ، وإنَّما تُسخِّفُها، وتُعرِّيها، وتُعيدُ تَقديمَها بوَصفها شيئًا عاديًّا لا يَستحقُّ التَّبجيلَ. وهذا أخطرُ من التَّكذيب؛ لأنَّ مَن يُكذِّبُ النَّبيَّ ﷺ قد يَخشى منه، أمّا مَن يُضحِكُ عليه، فقد قتلَ أثرَه في النَّفس. فالتَّهكُّمُ لا يَطعنُ في الحقيقة بمَنطق، وإنَّما يُرغِمُ النّاسَ على عدمِ أخذِها بجديّة، فيُسقطُها من ساحة الإقناع، ويُدخلُها في هامش الهَزل.

ومن هنا، فإنَّ الاستهزاءَ، بوَصفه أداةَ إفسادٍ رمزيٍّ، يَعملُ على إلغاء المسافة بينَ المُقدَّس والمُبتذَل، ويَجعلُ من الصَّلاة طَقسًا مُضحكًا، ومن الآيات لغةً مُكرَّرةً، ومن النبيِّ ﷺ صورةً تُناقَشُ على أرصفة

الأسواق، قال تعالى: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣].

هذه الآيةُ فيها تَصويرٌ عَميقٌ للأذى الذي عاناه النبيُّ ﷺ من المُستهزئينَ، إلى درجة أنَّ الله -تعالى- جَعلَ يُواسي نبيَّهُ ويُخفِّفُ عنه، ويقولُ له: لا تَحزَنْ فأنتَ عندَهُم الصّادقُ الأمينُ، وهؤلاءِ لا يُكذِّبونَكَ، وإنَّما يُكذِّبونَ بآياتِي التي أنزلتُها عليكَ، إنَّهم يُحاربونَني، وويلٌ لمَن حارَبَ الله.

ومعنى أنَّهم يَجحدونَ الآيات أنَّهم يَسحبونَ منها قيمتَها الرَّمزيّةَ، فيَجعلونَها مادّةً للتَّشكيكِ والتَّهوينِ والتَّشويشِ.

ولعلَّ أبلغَ ما يَكشفُ هذا النَّوعَ من الإفسادِ الرَّمزيّ ما وردَ في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا**﴾ [الفرقان: ٤١].

إنَّهم لا يُنكرونَ الوَحيَ صَراحةً، ولكنَّهم يُسيئون إلى قَداستِه بتصوير النبيِّ ﷺ على أنَّه اختيارٌ خاطئٌ من الله، وكأنَّهم يقولونَ: من بينِ كلِّ البشرِ، هذا؟!، ليُفرغُوا البعثةَ من مَعناها، ويَردُّوا القرارَ الإلهيَّ ذاتَه إلى ساحةِ السُّخريّة. وبهذا، يَنتقلُ الاستهزاءُ من كونِه سُلوكًا عَدائيًّا إلى كونِه مَشروعًا له هدفٌ واضحٌ: إسقاطُ صورةِ الرَّمزِ، لا من خلال مُواجهةِ الخطابِ، وإنَّما عن طريقِ تَحقيرِه عَلنًا حتى يُصبحَ مثارَ ابتسامةٍ بدلَ أن يكون موضوعَ خُشوعٍ. وقد كانَ لهذا النَّمطِ من الإفسادِ أثرٌ واضحٌ في بعضِ النُّفوسِ التي كانَت تَبحثُ عن المَعنى، فإذا بها تتردَّدُ بسببِ صورة

الرَّمزِ التي رسمَها المُستهزئونَ. فحينَ يُقال إنَّ النبيَّ ساحرٌ، أو شاعرٌ، أو مجنونٌ، أو مسكينٌ، أو غريبٌ، فإنَّ الغرضَ من هذه الأوصافِ، مع ما فيها من إساءَة ظاهرةٍ لشخصِ النبيّ ﷺ، منعُ النّاسِ من اعتباره مصدرًا للقَداسة، وهذا ما أشارَ إليه القرآنُ حينَ قال: ﴿**بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٥].

فهُم لا يَبحثونَ عن الآيةِ، وإنَّما يُسقطونَ أهليّةَ النبيِّ ﷺ للآية، ويُعيدونَ تَعريفَ الوَحي على أنَّه نتاجٌ نَفسيٌّ مُضطربٌ، أو مَوهبةٌ لغويّةٌ، أو طموحٌ اجتماعيٌّ. وهذا هو لبُّ الإفسادِ الرَّمزيّ: أنْ تُبدَّلَ الهالةُ بالرِّيبة، والقداسةُ بالتَّسخيف، والخطابُ الإلهيُّ بالخرافة المُقنَّعة.

إنَّ السُّخريّة هنا فيها رفضٌ للمُقدَّسِ، ومحاولةٌ لتَجريدِ القَداسة من مَرجعيّتها، وتَحويرٌ للرَّمزِ من حاملٍ للمَعنى إلى مادّةٍ للسُّخريّة. ولذلك، فإنَّ الردَّ القرآنيَّ على هذه المُحاولة كانَ بإعادة تَثبيتِ المَعنى، وتَذكيرِ المُؤمنينَ بأنَّ الرَّمزَ الحقَّ لا يُسقطُه الضَّحكُ، ويَكشفُه صدقُ المَوقف، وصَفاءُ الفعلِ، وعلوُّ الأخلاق. كما في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤]، وقوله: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣].

هكذا يُصبحُ الوَحيُ ذاتُه ردًّا على مشروع الإفسادِ الرَّمزيّ، ويُصبحُ الإيمانُ تَرميمًا مُتجدِّدًا لقداسةِ الرَّمزِ في وجهِ الهزلِ، وتَصعيدًا للمَعنى أمامَ الابتذالِ المُتعمَّد.

■ المبحث الثاني: تَشويهُ صورة النبيّ والوحي

إذا كان تَحطيمُ قداسةِ الرَّمزِ الإيمانيّ يتمُّ عبرَ التَّهكُّم من الهيئةِ والمظهرِ والمقام، فإنَّ الخطوةَ التاليةَ في مشروع الإفسادِ الرَّمزيّ هي تَشويهُ صورةِ النبيِّ ﷺ نفسه، وتَشويهُ الوَحي الذي يَحملُه، بتَقديمه بصورةٍ تُفرغ مَعناهُ وتُضعفُ أثرَه. وهنا تتحوَّلُ السُّخريّةُ إلى أداةٍ إعلاميّةٍ مُنظَّمة، تُعيد صياغةَ الوَعي العامِّ تُجاهَ النبيّ والرِّسالة، فتَزرعُ في الأذهان صورةً مُشوَّهةً تَفصلُ بينَ ما يُقالُ وما يُفهَمُ، بينَ الحقيقةِ القرآنيّةِ وما يُروَّج عنها. وقد سجَّلَ القرآنُ نماذجَ واضحةً لهذا النَّوعِ من التَّشويهِ الرَّمزيّ. قال -تعالى- على لسانهم: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ**﴾ [الحجر: ٦].

فالمُشكلة ليسَت في محتوى الذِّكر، وإنَّما في صورة من نُزِّلَ عليه. فبدلَ أن يُناقشوا النصَّ، ذهبوا لتَشويهِ النّاقلِ، ولصقوا به وَصفًا يُدمِّرُ الثِّقةَ، ويَزرعُ في المُتلقِّي خَوفًا نفسيًّا من الاقتراب. فالنبيُّ ﷺ في نظرِهم مرفوضٌ، وفي عَقلِه خَلَلٌ -والعياذ بالله- ولا يُؤتمَنُ على المَعنى.

وتكرَّرَ هذا المشهدُ في وصف آخَر: ﴿**إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ**﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ**﴾ [الفرقان: ٤].

وهنا تأخذُ السُّخريّةُ صورةَ التَّشكيك في أصل النصِّ، فتُعاد صياغةُ صورةِ الوَحي، بوَصفه تَركيبًا بشريًّا مُفتَعَلًا، فيه خيالُ الشّاعر، وكَيدُ السّاحر، وتَنسيقُ الكَهنة، وليسَ بوَصفه كلامَ الله. إنَّها مُحاولةٌ رَمزيّةٌ لتَحطيم صُورةِ القرآن في وَعي النّاس: "لا تَنظروا إليه على أنَّه نصٌّ سَماويٌّ، وانظروا إليه على أنَّه مُنتَجٌ مَشبوهٌ مُشتركٌ، لا قُدسيّةَ فيه".

ويُضاف إلى هذا التَّشويه وصفُ النبيِّ ﷺ بالشّاعر: ﴿**بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ**﴾ [الأنبياء: ٥]. والشّاعرُ هنا ليسَ المُبدِعَ في ذَوقِهم، وإنَّما المُتخيِّلُ الذي يَعيشُ في فضاء التوهُّم، لا في مَنطق الحَقيقة. كأنَّهم يَقولونَ: "لا تُصدِّقوا هذا الخطابَ، فصاحبُه يَعيشُ في حلم، ويُصوِّرُ العالَمَ بغَير ما هو عَليه". وهنا، يَنصرفُ النِّقاشُ عن جوهر الرِّسالة، ويتركَّزُ على الخيالِ الذي يُنتِجُها، وكأنَّها وَهمٌ شِعريٌّ يُمتدَحُ إنْ لم يدَّعِ أنَّه وَحيٌ.

وفي حالات أُخرى، يتحوَّلُ النبيُّ ﷺ من رسولٍ إلى مَجنونٍ، ومن مُبلِّغٍ إلى مُتَّهَم، ومن مَبعوثٍ إلهيٍّ إلى شخصيّة مَشكوكٍ في سَلامتها النَّفسيّة -والعياذ بالله-، قال -تعالى-: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وهذه النَّقلةُ الرَّمزيّةُ في التَّصوير تكشفُ نيّةً خَبيثةً: تَشويه مقام النبيِّ ﷺ بوَصفه غيرَ أهلٍ للتَّلقِّي، فلا يُؤخَذُ عنهُ شَيءٌ، ولا يُوثَقُ بما يَرويه، ولا يُحترَمُ كلامُه مَهما بلغَ من الوضوح.

ومن أبلغ صورِ هذا التَّشويه ما وردَ في وصفهم للنبيِّ ﷺ بأنَّه طامعٌ بالسُّلطة، فقالوا: ﴿**لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٣١].

فهم لا يَرفضونَ القرآنَ بذاته، وإنَّما يَرفضونَ النَّبيَّ؛ لأنَّهم لا يَرونَه جَديرًا بالمَقام، فهو ليسَ من النُّخبة، ولا من عليّة القوم، ولا يَحمل مواصفات الزَّعامة كما يَفهمونَها. وهذه السُّخريّةُ تُخفي تَحتَها معيارًا دنيويًّا يَجعلُ الرِّسالةَ تابعةً للمَقام الاجتماعيِّ، فإذا لم يكن صاحبُها من طبقة المُترَفينَ، فهي بالضَّرورة باطلةٌ أو مَشبوهةٌ أو محلُّ ريبة.

ويَتحوَّلُ التَّشويهُ أحيانًا إلى حياة النَّبيّ الطَّبيعيّة، فيتَّخذونَها موضعَ سُخريّة، ويتندَّرونَ ويسخرونَ، كما في قولهم: ﴿**مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٧].

فالمُمارساتُ البشريّةُ العاديّةُ تتحوَّلُ هنا إلى قرائنَ على زَيف الدَّعوة: "كيفَ يدَّعي الوَحيَ، وهو يأكلُ مِثلَنا؟!" وهكذا، لا يُنكَرُ مُحتوى الرِّسالة؛ لأنَّ الإنكارَ يحتاجُ إلى حجّة، أمّا الانتقاصُ من هيبَتها، والتَّقليلُ من شأن حاملها، فلا يَحتاجُ إلا قليلاً من التَّدثُّر والمُيوعة، ولذلك دأبوا على السُّخريّة من سلوك النَّبيّ ﷺ، مُحاولينَ إعادةَ صياغته في وَعي النّاس بوَصفه رَجلاً عاديًّا تمامًا، لا يَحمل أيَّ فارقٍ قُدسيٍّ، فلا يَستحقُّ الإصغاءَ ولا الاتِّباعَ.

إنَّ هذا التَّشويهَ المُتعمَّدَ هو جوهرُ الإفسادِ الرَّمزيّ: تدمير الرَّمز عبرَ

تَهشيم صورته في الوَعي الجَمعيّ، عبرَ تَسفيه حضوره، لا تَفنيد قوله. ومن هنا، فإنَّ القرآنَ يردُّ على هذه الحَملة بترَسيخ صورة النبيِّ ﷺ بوَصفه رَمزًا خُلُقيًّا مُتكاملًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وبأنَّه حاملُ رسالة لا طالبُ زعامة: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [سبأ: ٤٧]، وبأنَّه ليسَ شاعرًا ولا يَتلقَّى الوَحيَ من الكَهنة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢].

وهكذا تتبيَّنُ ملامحُ المَشروع القرآنيِّ المُضادِّ: إنَّ مُواجهةَ تَشويه صورة النبيِّ ﷺ والوَحي تكونُ بإعادة تَثبيت الصُّورة الأصليّة، بلُغةٍ رَصينةٍ، وقِيَمٍ مُتعاليةٍ، وخطابٍ قِيَميّ يَرتفعُ فوقَ المَهزلة.

■ المبحث الثالث: إشاعة الضَّحك بدلَ التفكُّر اللَّعب بالعُقول

في منظومة الاستهزاء، التي يَرصدُها القرآنُ الكريم، لا يَقفُ التَّهكُّم عندَ حدِّ مُهاجمة الرُّموز أو تشويه الوَحي، إنَّه يَتجاوزُ ذلكَ إلى خلق بيئة شعوريّة تُقصي الجديّةَ، وتُعيد تنظيم الوَعي على الاستجابة بالضَّحك بدلَ التَّفكير، فيتحوَّلُ العقلُ من آلة فكريّة إلى مرآة عبثيّة، تَبتسِمُ حيثُ

يَنبغي أن تتأمَّلَ، وتَضحكُ حيثُ يَجب أن تَرتجفَ.

هذا التحوُّلُ في مسيرةِ السُّخريّةِ هو جزءٌ من بنيتِها العَميقةِ، وسرٌّ من أسرارِ خطورتِها؛ لأنَّ السُّخريّةَ تُعيدُ تَعريفَ الوقائعِ بطريقةٍ ساخرةٍ، فتُبطِلُ أثرَها في النَّفس، وتكسرُ جديّتَها أمامَ الجمهور، وتمَنعُ أيَّ تفاعُلٍ رُوحيّ عَميقٍ معَها. حينَ يَسخرُ أحدُهم من النبيِّ ﷺ، أو من الصَّلاةِ، أو من المَبدأ، لا يكونُ هدفُه مُجرَّدَ التَّجريحِ، وإنَّما يتجاوزُ ذلك إلى تَحويلِ المَعنى إلى مادّةٍ مُضحكةٍ، لا تُؤخَذُ على مَحملِ الجدّ.

وقد وصفَ القرآنُ هذا النَّمطَ من الانحدار العَقليّ في قوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩]. إنَّهم لا يُواجهونَ المُؤمنينَ، ولا يُجادلونَهم، لا يُناقشونَ أفكارَهم، وكلُّ ما يَفعلونَه أنَّهم يَضحكونَ فقط. والضَّحكُ هنا ما هو إلّا سلاحٌ رمزيٌّ لإلغاءِ أثرِ الإيمانِ في الحيِّزِ العامِّ، تمَامًا كما يُغرَقُ الصَّوتُ الجادُّ في قاعةٍ من القَهقهات، فيَفقدُ وَقعَه، ويُعامَلُ كأنَّه طُرفةٌ. فبدلَ أن يكون الدِّينُ مادّةَ وَعي، يُعادُ إظهاره وفقَ صورةٍ هَزليّةٍ، تُدغدِغُ مشاعرَ الجَماعة، وتمَنحُهم شُعورًا بالتفوُّقِ الزّائف.

وهذا النَّوعُ من الضَّحكِ ليسَ تلقائيًّا أو عَفويًّا، إنَّه يُبنى بتَخطيطٍ ثقافيّ؛ إذ يُشيرُ القرآن إلى أشخاصٍ مُهمّتُهم أن "يَضربُوا الأمثالَ"، و"يَختلقُوا القصصَ"، لزَرعِ السُّخريّةِ بدلَ التفكُّر، قال -تعالى-: ﴿**ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلا**﴾ [الإسراء: ٤٨].

فهم لا يَبحثونَ عن المَعنى، وكلُّ هَمِّهم أنْ يَصنعوا استعاراتٍ تُحرِّفُ صورةَ النبيّ ﷺ وتُقدِّمُه بصورة ساخرة. وهذا الضَّربُ للأمثالِ هو لغَرضِ التَّحقيرِ الرَّمزيّ، وهو ما يَقودُ إلى فقدان الطَّريقِ إلى الحَقيقة؛ لأنَّ الضَّحِكَ إذا سبقَ التفكُّرَ، سدَّ عليه الطَّريقَ.

وفي موضعٍ آخَرَ، يُصوِّرُ القرآنُ جمهورَ السُّخريّة، وهم يَتغامَزونَ، ويَتضاحَكونَ، ويَستخفُّونَ بكلِّ شَيء: ﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين: ٣٠]، ﴿**وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ**﴾ [المطففين: ٣٢].

إنَّه مَسرحٌ دائمٌ للهزل، تُستبَعَدُ فيه كلُّ قيمةٍ عُليا، ويُقدَّمُ فيه الإيمانُ باعتباره أسطورة، والمُتديِّنُ مسكينًا، والنبيُّ مثاليًّا ساذجًا. فيَصيرُ الحقُّ في الوَعي العامِّ، صورةً كاريكاتوريّةً تُثيرُ الضَّحِكَ لا الخُشوعَ.

وهنا يتَّضحُ أنَّ الاستهزاءَ لا يَعملُ وحدَه؛ إذ يُرافقُه نوعٌ من التَّرفيهِ السّاخرِ الذي يُحبطُ التَّفكيرَ الجادَّ. فمَن يُشاهِدِ السّاخرينَ يَتهكَّمونَ من النبوّة، ثم يَعدْ إلى نصوصِ الوَحي، فسَيقرأُها - غالبًا - بعَينِ التوجُّسِ، أو على الأقلِّ بعَينٍ لا تأخذُها بكاملِ الجديّة؛ لأنَّ الضَّحِكَ المُسبَقَ قد كوّن استجابتَه دونَ أن يَشعر.

ولهذا، فإنَّ أخطرَ ما تُحدثُه السُّخريّةُ هو أنَّها تُخدِّرُ الحسَّ التأمُّليَّ. و يُحذِّرُ القرآنُ من القُعودِ في مجالسَ يُستهزَأُ فيها بالوَحي: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ**﴾ [النساء: ١٤٠]؛

لأنَّ مُجرَّدَ الحضورِ في جوِّ السُّخريّةِ يُعيدُ تنظيم العَقلِ الباطنِ، ويُفقدُ الكلمةَ وَقارَها، فيَتحوَّلُ الذِّكرُ إلى صوتٍ مَتكرّر، يَستدعي الضِّحكةَ، ولا يُثيرُ القلبَ.

وهكذا نَفهمُ لماذا دَعا القرآنُ إلى أن يكونَ المَوقفُ من السُّخريّةِ مَوقفًا وُجوديًّا، لا اجتماعيًّا فقط؛ لأنَّها تُشوِّهُ جهازَ الاستقبالِ الدّاخليّ لدى الإنسانِ، وتُحوِّلُه من مُتلقٍّ جادٍّ إلى مُتلقٍّ ساخرٍ، ومن قارئٍ باحثٍ إلى قارئٍ مُستهزئٍ، ومن عَقلٍ تأمُّليّ إلى عقلٍ عابثٍ.

فالمَعركةُ هنا خرجَت من ساحةِ الإيمانِ والرَّفضِ، وأصبَحَت بينَ الجديّةِ والضَّحكِ، وبينَ الكلمةِ بوَصفِها طَريقًا للهِدايةِ، وبينَها بوَصفِها طرفةً تَمضي دونَ أثَرٍ.

وحينَ يَنتصرُ الضَّحكُ يَنهارُ المَعنى، وتَسقطُ الرُّموزُ، وتُسلَب الكلمةُ من قداستِها، فيُصبحُ الدِّينُ نفسُه جزءًا من معرضِ التَّهكُّمِ الجماعيّ.

■ المبحث الرابع: المُستهزئُ بوَصفِه أداةً شيطانيّةً خلفيّة إبليسيّة

في التَّحليلِ القرآنيّ العَميقِ لبنيةِ الاستهزاءِ، لا يُعرَضُ المُستهزئُ بوَصفِه شخصيّةً طائشةً أو مُجرَّدَ عدوٍّ ظاهرٍ للأنبياءِ، وإنَّما يُوضَعُ أحيانًا ضمنَ

خريطةٍ أوسعَ تتَّصلُ بالمَشروعِ الإبليسيّ ذاته؛ حيثُ يتحوَّلُ التَّهكُّم من سلوكٍ عدوانيّ إلى وظيفةٍ رَمزيّةٍ شَيطانيّة، هدفُها إفسادُ المَعنى، وتشويهُ الرُّموز، وبثُّ الشكِّ والاستخفافِ في الوَعي الجَماعيّ، تمَهيدًا لانهيارِ العَلاقةِ بينَ الإنسانِ والوَحي.

ولعلَّ أوَّلَ سُخريّةٍ، في تاريخِ العَلاقةِ بين الخَلقِ والوَحي، هي تلكَ التي مارَسَها (إبليسُ) نفسُه، حينَ واجهَ أمرَ اللهِ بالسُّجودِ لـ (آدَمَ)، بالسُّخريّةِ من المادّةِ التي خُلقَ منها (آدَمُ)؛ إذ قالَ إبليسُ: ﴿**أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ**﴾ [الأعراف: ١٢].

إنَّها ليسَت حجّةً عقليّةً بلاغيّةً، وإنَّما هي مَنطقٌ ساخرٌ خفيٌّ، يُقلِّلُ من شأنِ (آدَمَ)، باعتباره رَمزًا مُكرَّمًا. ويَرفضُ الاعترافَ بالقَداسةِ التي أُلبِسَت له. وهذا التَّهكُّمُ، الذي يَختفي وراءَ المُقارنة، هو أوَّلُ تمرُّدٍ رَمزيٍّ في الوجودِ، وأوَّلُ لحظةٍ يَسخَرُ فيها مخلوقٌ من رمزٍ إلهيٍّ دونَ أن يُصرِّحَ بالسُّخريّة، وإنَّما يُغلِّفُها بمَنطقِ الاصطفاءِ الذّاتي.

ومن هنا، فإنَّ كلَّ مَن يَسيرُ على هذا النَّهجِ، يَرِثُ البنيةَ الإبليسيّةَ نفسَها، من حيثُ الأسلوبِ والمُنطلَقُ: حيثُ يُرفَضَ الرَّمزُ؛ لأنَّه لا يُناسبُ الأهواءَ، أو لا يَنسجمُ مع مَقاييسِ الكبرياء، أو لأنَّه يَنتزِعُ من النَّفسِ مكانتَها العُليا، ويَجعلَها مأمورةً بعدَ أن اعتادَت أن تأمُرَ. فالمُستهزئُ، إذ يَسخَرُ من النبيِّ أو من القُرآن، يُكرِّرُ فعلَ (إبليسَ) بطريقةٍ أُخرى: يَرفضُ أن يَسجدَ للمَعنى؛ لأنَّه يَرى نفسَه أكبرَ من الخُضوعِ له.

وقد أشارَ القرآنُ إلى هذا التَّماهي بينَ المُستهزئ والشَّيطان في أكثرَ من مَوضعٍ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**إِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ**﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦].

فالخَوضُ في الآيات، وهو أحدُ أنماط السُّخريّة المُتلفِّعة بالثَّرثرة، يُدخِلُ صاحبَه في دائرةِ القَرينِ الشَّيطانيّ؛ لأنَّ تهكُّمَه لم يَعدْ مُجرَّدَ هروبٍ، وإنَّما أصبحَ تَجنيدًا رمزيًّا ضدَّ القَداسة.

كما يُجسِّدُ الشَّيطانُ في القرآن دورَ "المُزيِّن"، لا المُجبِر: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٨]، وهو بذلكَ يُوحي للمُستهزئ بأنَّ سُخريّتَه ذكاءٌ، وأنَّ تهكُّمَه فِطنةٌ، وأنَّ طرفته تَفقُّهٌ، وأنَّ كلَّ إشارةٍ رَمزيّةٍ مُهينةٍ للحقِّ هي خروجٌ من النَّمط، لا خيانةٌ للمَعنى. وهنا، تتجلَّى أعمقُ أنماط التَّوظيف: أنْ يكون المُستهزئُ مَخدوعًا بدَوره، ويُؤمنُ أنَّه كاشفٌ للزَّيف، وهو في الحقيقة هادمٌ للحقِّ، فيُحوِّلُ نفسَه دونَ أنْ يَشعُرَ إلى امتدادٍ صوتيّ للوَسوسة الإبليسيّة في الفَضاء البَشري.

وما يُثير الانتباهَ أنَّ (إبليسَ) لم يَستخدمْ سَيفًا، ولا فِعلًا ماديًّا مباشرًا، وكلُّ ما استعمَلَه كلمةٌ، واعتراضٌ رَمزيٌّ، ونظرةٌ ساخرةٌ إلى خلق الله. وهذا يُبيِّنُ أنَّ السُّخريّةَ تتجاوزَ الحالةَ المزاجيّةَ، إلى الفعلِ الوجوديّ الذي له امتداداتٌ في تاريخ التمرُّدِ على الوَحي. وكلُّ مَن يَستنسِخُ هذا

النَّموذجَ، إنَّما يَعملُ في مشروعٍ واحدٍ، وإنْ اختلفَتْ أدواتُه: من الإشارةِ إلى الطُّرفة، ومن العبارةِ إلى التَّقليدِ، ومن التَّجاهُلِ إلى التَّشويه.

وهكذا، فإنَّ المُستهزِئَ في مَنطقِ القرآنِ لا يَقتصرُ على مَن يَضحكُ من الحقِّ، وإنَّما يشملُ مَن يُعيدُ إنتاجَ المَوقفِ الإبليسيِّ في سياقٍ لغويّ جديدٍ، ويُحوِّلُ نفسَه إلى أداةٍ لإرباكِ المَعنى، وتَشويهِ الرُّموزِ، وسَحبِ الجديّةِ من ساحةِ الوَحي. وهو، من حيثُ يَدري أو لا يَدري، يمُهِّدُ الطَّريقَ لنَموذجِ الإنسانِ الذي لا يَخضعُ، ولا يتأمَّلُ، ولا يَعترِفُ بشَيءٍ فوقَه، ولا يَسجدُ إلا لصَوتِه الدّاخليّ، فيُعيدُ بذلكَ سيرةَ (إبليسَ)، بوَصفِه فكرةً ناطقةً بالسُّخريّةِ، لا تُنجِبُ إلا التَّشكيكَ والاضطرابَ والاستهانةَ بكلِّ ما يَحمل قداسةً.

الفصل السابع:

السُّخريّة الحديثة - حرب الرُّموز في العصر الرَّقمي

بعد أن استعرضْنا تجلِّيات الاستهزاءِ في العصور النبويّة القَديمة، بوَصفه أَداةَ إفساد رمزيّ، ووَسيلةَ تَشويه للنبيِّ والوَحي والمَعنى، يأتي هذا الفصلُ ليَطرحَ سؤالًا ضروريًّا: كيفَ أُعيدَ إنتاجُ الاستهزاءِ في العَصر الحَديث؟ وهل تَلاشَى بغياب الطُّقوس الجاهليّة أم أنَّه عاد بصُور أكثرَ انتشارًا وسَطوةً؟ وهل السّاخرُ الحَديثُ يُعبِّرُ عن ذاته فقط، أم يُجسِّدُ استراتيجيّات رَمزيّةً تتجاوزُ وَعيَه الفرديَّ لتَخدمَ مشاريعَ أعقَدَ؟

في هذا الفصلِ، نتناولُ الاستهزاءَ الحديثَ، بوَصفه أداةً ناعمةً تُوظَّفُ في الثَّقافة والإعلام والسِّياسة لتَفكيك الرُّموز، وضَرب الهويّة، وتَحويلِ القَداسةِ إلى مادّةٍ للاستهلاكِ الجَماهيريّ.

■ المبحث الأوَّل:
السُّخريّة من الرُّموز الدِّينيّة في الإعلام والثَّقافة

في عصر الصُّورة والكلمة المُتحرِّكة، لم تعدِ الحربُ على الدِّينِ

تُخاضُ بالسَّيف أو القانون فقط، وإنَّما بوسائلَ أخطرَ: السُّخريّة، والتَّهكُّم، وإعادة التَّمثيل، وتقليد النبوّة، وتَشويه الطُّقوس، وتحويل المُقدَّسات إلى عُروض، وتَصميم سيناريوهات تُلبسُ الرُّموزَ الدِّينيّةَ أقنعةَ الخرافة أو الجنون أو الغَرابة أو الجَريمة. لقد أدركَ العقلُ الحديثُ أنَّ أكثرَ الأسلحة فَتكًا هي الطُّرفة التي تُضحِكُ الجمهورَ وتُقصي المَعنى بصَمت.

ومن أبرز مظاهر هذه الحرب الرَّمزيّة أنَّ السُّخريّةَ أصبحَت جُزءًا من المشهد الثَّقافيِّ السّائد، تَدخُلُ المُسلسلات، والمَسرحيّات، والأفلامَ، والرُّسومَ المُتحرّكةَ، فتُصوَّرُ الصَّلاةُ كأنَّها طقسٌ ساذجٌ، ويُقدَّمُ رجلُ الدِّين في هيئة الكاذب أو السّاذج أو الشَّهوانيّ أو المُتآمر، ويُقدَّمُ النبيُّ (حين يُمثَّل أو يُشار إليه) بصورة تُثيرُ الرِّيبةَ أو الاستغرابَ أو السُّخريّةَ غيرَ المُباشرة، دونَ حاجة للتَّصريح. إنَّه التَّفكيكُ الهادئُ، الذي يتنحَّى عن مهاجمة الفكرة، ويَعملُ على إفراغها من مهابتها، حتّى تُصبحَ بلا أثر.

وقد أصبحَ ما يُسمَّى بـ"حريّة التَّعبير" غطاءً لمُمارسات رَمزيّة قاسية، يُمنَحُ فيها الفنّانونَ والكُتّابُ والمُخرجونَ حقَّ التَّهكُّم من الرُّموز الدِّينيّة، باعتبارها ماضيًا ثَقيلاً يَجبُ فَضحُه، أو مَنظومةً لا تقفُ على مَنطق. وفي هذا السِّياق، تَظهر أعمالُ كاريكاتوريّة تمسُّ (النبيَّ محمّدًا) ﷺ، فتُقدِّمُه في صورة رَجعيّة، أو تُختزل حياتَه في زواج أو سَيف، أو يُقدَّم القرآنُ في بعض الإنتاجات، بوصفِه كتابًا دمويًّا أو مُشوَّشًا، دونَ أن يُقال ذلكَ

صراحةً، وإنَّما يُفهَمُ من السِّياق واللَّقطة والمُوسيقى والتَّكرار والإيحاء.

وفي عالَم السِّينما العالميّة، نجدُ نمَطًا مُتكرِّرًا من الهجوم الرَّمزيّ على الدِّين، تُحوَّلُ فيه الشَّخصيّاتُ الدِّينيّةُ إلى نماذجَ مُضطربةٍ، أو غيرِ عَقلانيّة، أو مُصابة بوَهم التَّواصل مع الغَيب، فيُعادُ تكوين صورة النبيِّ أو القدِّيس أو المؤمن، بقَصد إعادة تَعريف العَلاقة معَ الوحي في اللاّ وعي الجَمعيّ: بوصفه خللاً نفسيًّا، أو استعارةً دراميّةً تُثير التأمُّلَ والضَّحكَ معًا.

والأخطرُمن كلّ ذلك، أنَّ هذه السُّخريّةَ الثَّقافيّةَ تُعرَضُ ناعمةً بوصفها فنًّا، وحريّةً، وإبداعًا، فتدخلُ العقولَ دون مقاومة، وتُكوّن المَواقفَ بهُدوءٍ. فالمُتلقِّي لا يَشعرُ أنَّه يُعاد تكوين وَعيه؛ لأنَّه لا يَقرأُ كُتيِّبًا في التَّشكيك، وإنَّما يُشاهدُ عَرضًا مُمتعًا، يُضحكُه ويُسلِّيه، لكنَّه يَغرسُ في داخله أنَّ القَداسةَ لَيسَت مهيبةً، وأنَّ الرُّموزَ يمُكن تَحويلُها إلى أيِّ شيءٍ: مادّة للضَّحك، أو عِبرة رمزيّة، أو نموذج دراميّ يُستخدَمُ حسبَ الحاجة.

وقد رأينا في السَّنوات الأخيرة تصاعُدًا في هذه المُمارسات، من نشر رسوم كاريكاتيريّة تَهكُّميّة، إلى عروض مَسرحيّة تُجسِّدُ الأنبياءَ بسُخريّة، ومقاطع فيديو تُظهر الطُّقوسَ الدِّينيّةَ بصورة مُفرطة في الكوميديا، بهدف إعادة تَعريف الدِّين في المخيال المُعاصر، بوَصفه كومةَ مُتناقضاتٍ قابلةً للضَّحك. والنَّتيجةُ ليسَت رفضًا واعيًا للدِّين،

وإنَّما فقدان الهَيبة تُجاهَه، وغياب الشُّعور بالخُشوع، وتحوُّل الرُّموز إلى صُورٍ عاديّة جدًّا، لا تُؤثِّرُ في النَّفسَ، وتُحرِّكُ الضَّحكَ فقط.

وفي هذا كلِّه، يُعاد إحياءُ دور المُستهزئ بوصفه مؤسَّسةً، ومُحرِّكًا ثقافيًّا يَعمل ضمنَ إطارٍ أكبر، له أهدافٌ سياسيّةٌ، واستراتيجيّاتٌ ثقافيّة، ووسائلُ إنتاجٍ ضَخمة. فالسُّخريّةُ لم تعدْ فعلاً فرديًّا، وإنّما أصبحَت جهازًا إعلاميًّا يَعمل على تقويضِ الرُّموزِ، ويُغلِّفُ ذلكَ كلَّه بلغةِ الجمال، والجُرأة، والانفتاح.

وهكذا، فإنَّ السُّخريّةَ من الرُّموزِ الدِّينيّة في الثَّقافة المُعاصرة، أصبحت حربًا رمزيّةً ناعمةً تَهدف إلى إعادةِ كتابةِ العلاقةِ بينَ الإنسانِ والدِّين، بالتندُّر والإضحاك. وهو ما يَستدعي من المؤمنِ الواعي وَعيًا رَمزيًّا يُدرِكُ البنيةَ العَميقةَ لهذه المُمارسات، ويَستعيدُ للدِّينِ مَهابةَ الحضورِ في عالمٍ قرَّرَ أن يَجعلَ من الجديّة عارًا، ومن القَداسةِ نكتةً، ومن النبوّةِ مَشهدًا كاريكاتوريًّا آخَرَ في الحياةِ اليوميّة.

■ المبحث الثاني:
مواقع التَّواصلِ بوصفِها مسرحَ استهزاءٍ جماهيريّ

في العَصرِ الرقميِّ، لم تعد السُّخريّةُ مَحصورةً في النُّخبِ الإعلاميّةِ أو المُنتِجينَ الثَّقافيِّينَ، لقد أصبحَت مُمارَسةً جماهيريّةً واسعةَ النِّطاقِ،

تُنتجُها الجماعةُ، وتُعيدُ تَدويرَها، وتُضفي عليها شرعيّةَ الترَّفيهِ والتَّفاعل. ومعَ تحوُّلِ مواقعِ التَّواصلِ الاجتماعيّ إلى الفَضاءِ العامِّ الجَديد، باتَ الاستهزاءُ بالدِّينِ ورُموزه جُزءًا يوميًّا من التَّداولِ الرَّقميّ، تُنشرُ فيه الصُّورُ والنِّكاتُ والتَّعليقاتُ السّاخرةُ، ويُقاسُ تأثيرُها بعددِ الإعجاباتِ والمُشاركات، لا بعُمقِ الفكرةِ أو صدقِ المَضمون.

هذه البيئةُ الجديدةُ – فيسبوك (facebook)، وإكس(X)، وإنستغرام (instagram)، وتيك توك (TikTok)، ويوتيوب (Youtube) – وفَّرَت منصّاتٍ للنِّقاش، لكنَّها حوَّلَتِ التَّهكُّمَ إلى لغة سائدة، وأعادَت تشكيلَ العلاقةِ معَ المُقدَّسِ عبرَ عدسةِ الضَّحكِ الجَماعيّ. فما إنx يُنشَر مُحتوًى يتَّصلُ برَمزٍ دينيّ، حتى يَبدأَ طوفانُ التَّهكُّم، من باب الأسلوبِ السّاخر، لا من بابِ مُحاربةِ الرُّموزِ وإقصائها.

ويَبرزُ في هذه السّاحةِ ما يُمكن تَسميتُه بـ "رموز السُّخريّة الجماعيّة"، وهي شخصيّاتٌ أو رموزٌ دينيّةٌ أو حتّى سُلوكيّاتٌ عباديّةٌ، تُجمَعُ في محتوًى بصريّ ساخرٍ يَنتشرُ كالنّار، ويُعاد استخدامُه في سياقاتٍ مُتعدِّدة، فيُصبحُ جزءًا من القاموسِ الرَّمزيّ الجَديدِ للضَّحكِ الرَّقميّ. والصادمُ أنَّ كثيراً من هذه المَوادِّ يُنتَج داخلَ البيئاتِ المُسلمةِ نفسِها، تحتَ غطاءِ "الدّعابة"، أو "النَّقد الذّاتي"، أو "التَّحرُّر من الكَهنوت"، وهو في حقيقتِه أداةٌ لنَسفِ مَهابةِ الرَّمز، وتَجريدِ الشَّعائرِ من سَكينتِها، وتَشويهِ صُورةِ التديُّنِ في الوجدانِ العامِّ.

ومن الآليّات الخَطيرة التي رسَّختْها مواقعُ التَّواصل:

١. **الهاشتاغات (Hashtag) التَّهكُّميّة:** حيثُ تُطلَقُ وسومٌ ساخرةٌ على الأحداث الدِّينيّة أو الرُّموز، ويَتنافسُ المُستخدمونَ على كتابة أكثرِ الجملِ طَرافةً أو تَهكُّمًا، فتتحوَّلُ القضيّةُ من نقاشٍ إلى عَرضٍ هزليّ.

٢. **الميمات (Memes):** وهي الصُّورُ المُعبِّرةُ التي تُرفَق بجُملٍ تهكُّميّة، وغالبًا ما تُستعمَلُ مَشاهدُ دينيّةٌ أو رُموزٌ مَعروفةٌ يُعاد تَوظيفُها في سياق السُّخريّة؛ بحيثُ تُخلَقُ دلالةٌ جديدةٌ تَنتزِعُ الرَّمزَ من مكانته لتُعيدَ إنتاجَه في قالبٍ مُبتذل.

٣. **المَقاطع المُختزلة:** حيثُ تُؤخَذُ خُطَبٌ أو أدعيةٌ أو آياتٌ، ويُقتَطَعُ جزءٌ منها، وتُضافُ مُؤثِّراتٌ صَوتيّةٌ أو مَرئيّةٌ تَجعلُها تُثيرُ الضَّحِكَ، فيَغيبُ المَعنى، ويَبقى الشَّكلُ الهَزليُّ هو المُسيطر.

٤. **الإيموجي (Emoji) والتَّفاعل الرَّمزي:** إنَّ أبسط أدوات التَّفاعل، كالتَّعليق الضّاحك أو الوَجه المُتهكِّم، تُستعمَلُ لترَسيخِ مزاجٍ عامٍّ تُجاهَ المُحتوى الدِّينيّ، فيُصبحُ أيُّ رمزٍ مُقدَّسٍ عرضةً للتَّصويتِ بالسُّخريّة.

وما يَجعلُ هذا النَّوعَ من الاستهزاءِ أكثرَ فَتكًا هو أنَّه لا يُمارَس من العامّةِ لا من سُلطةٍ، فلا يَجِدُ مَن يتصدَّى له؛ لأنَّ خَصمَه غيرُ مُحدَّدٍ، بل

هو "الجمهور"، وهذا يَخلقُ نَوعًا من الحصانة الزّائفة؛ إذ يَعتقدُ النّاسُ أنَّ المُشاركةَ في هذه السُّخريّة مُجرَّدُ مشاركةٍ في "المَرح العامِّ"، دونَ إدراكٍ أنَّ هذا المَرحَ يَتراكَمُ حتَّى يتحوَّلَ إلى وَعيٍ جَديد، لا يأخذُ الدِّينَ بجديّةٍ، ولا يَرى في النبوّة إلا مادّةً كوميديّةً يُمكنُ تَوظيفُها بحريّةٍ تامّة.

ولم تعد الظّاهرةُ مُقتصرةً على الأفراد؛ إذ أصبحَت بعضُ الحساباتِ الكبيرةِ وصنّاعِ المُحتوى يتعمَّدونَ تقديمَ الدِّينِ في قوالبَ هزليّةٍ، لتَحقيقِ التَّفاعلِ الجماهيريّ، ولو على حساب الرُّموزِ والمُقدَّساتِ. فالصُّورةُ السّاخرةُ تَجذبُ المتابعين، والمُحتوى الجادُّ يُهمَلُ من قِبَلهم، ومعَ الوقت، تُعادُ بَرمجةُ الحُضورِ الدِّينيّ في الوَعي الجَمعيّ ليأخُذَ شَكلاً طَريفًا، لا تَوقيريًّا.

وهكذا تتحوَّلُ مواقعُ التَّواصلِ إلى مسرحِ استهزاءٍ جماهيريّ واسع، تُنتَجُ فيه السُّخريّةُ بأيدينا، ويُصفَّقُ لها من جُمهورنا، ويُعاد تدويرُها كأنَّها من أدوات التَّسليةِ، وهي في العُمقِ آلةٌ ناعمةٌ لتَحطيمِ مَهابةِ الدِّينِ، وتَفريغِ الوجدانِ من الخشوعِ، وبثِّ شعورٍ أنَّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للضَّحكِ، حتى الوَحيَ ذاتَه.

وفي هذا السِّياق، يكونُ واجبُ المُؤمنِ الواعي أن يُدركَ أنَّ الضَّحكَ ليسَ دائمًا بَريئًا، وأنَّ التَّفاعُلَ الظّاهريَّ مع محتوًى ساخرٍ من الدِّينِ قد يكونُ مُشاركةً في مَشروعٍ رَمزيٍّ يَهدفُ إلى تَحطيمِ الجديّة، ونسفِ العلاقةِ بينَ النّاسِ وربِّهم، حتى لو لم يُعلَنْ ذلكَ بصيغةٍ عَدائيّة.

■ المبحث الثالث:
الاستهزاء المُنهجُ في سياسات الهَيمنة الثَّقافية

في النِّظام العالميّ المُعاصر، لم تعد الهَيمنةُ الثَّقافيّةُ تَقومُ فقط على القَهر المُباشر أو فرض النَّماذج بالقوّة، لقد باتَت تُدارُ عبرَ أدوات أكثرَ نُعومةً وخَفاءً، تُحقِّقُ النَّتائجَ نفسَها - وربمَّا أكثر - دونَ مُواجهةٍ صَريحة. ومن أخطر هذه الأدوات: السُّخريّةُ المُنهجةُ من الرُّموز الدِّينيّة، باعتبارها وسيلةً لنَزع الهَيبة من الهُويّات، وتَفكيك الشُّعور الجَمعيّ بالانتماء، وتَجريد الشُّعوب من مصادر قَداستها.

إنَّ الاستهزاءَ، حينَ يُدارُ من غرف التَّحكُّم بالثَّقافة والإعلام والسِّياسة، يكونُ جزءًا من استراتيجيّة متكاملة لصناعة وَعي عالميّ جديد، لا مكانَ فيه لِما هو مُقدَّسٌ، ولا اعتبارَ فيه لما يُسمَّى وَحيًا أو نبوّةً أو شَريعة.

لقد أدركَت مراكزُ القوى الفكريّة والثَّقافيّة في العالَم أنَّ الدِّينَ - في المُجتمعات غير الغَربيّة - ما زالَ يُشكِّلُ مَرجعيّةً عَميقةً تَربطُ الإنسانَ بقِيَم عُليا، وتمَنحُه مَناعةً داخليّةً تمَنعُ انصهارَهُ التّامَّ في النَّموذج الاستهلاكيّ الحَديث. فكان لا بدَّ من تَفكيك هذه المَرجعيّة، لا بالمُواجهة اللّاهوتيّة، وإنمَّا بالضِّحك والسُّخريّة والتَّمثيل الكاريكاتوريّ، أي بتَحويل الرَّمز من مصدرِ مَهابةٍ إلى مادّةِ تهكُّمٍ جماهيريّ.

وقد ظهرَت هذه السِّياساتُ جَليّةً في مَوجاتٍ مُتتاليةٍ من الإهاناتِ الرَّمزيّة: من نشرِ الرُّسومِ المُسيئةِ لـ (النبيّ محمّد) ﷺ في صحفٍ أوروبيّة، إلى أفلامٍ قصيرةٍ تُنتجُها جهاتٌ مَشبوهةٌ تُصوِّرُ الوَحيَ باعتباره عنفًا، خرافةً، والشَّريعةَ رجعيّةً، وإلى احتفالاتٍ ثقافيّةٍ تُقدَّمُ فيها مشاهدُ تَمثيليّةٌ تَعبثُ بالآياتِ والنُّصوصِ باسمِ الفنِّ المُعاصر، وإلى معارضِ فنونٍ تَسخرُ من الرُّموزِ، وتُمنَحُ جَوائزَ دَوليّةً لكَونها "تَحرُّريّة".

والقاسمُ المُشتركُ في هذه المَوجاتِ أنَّ السُّخريّةَ تكونُ مَدعومةً بمَنظومةٍ قانونيّةٍ وإعلاميّةٍ وفكريّةٍ تُؤمِّنُ لها الحمايةَ وتَمنحُها الشَّرعيّةَ. فتُدرَجُ ضمنَ "حريّةِ التَّعبير"، وتُنتَقدُ كلُّ محاولةٍ للردِّ عليها بوَصفِها "تطرُّفًا" أو "رجعيّةً" أو "تَهديدًا للقيَمِ الدِّيمقراطيّة". وبهذا، يُحاصَرُ المُتديِّنُ نفسيًّا: لا يَستطيعِ الدِّفاعَ عن رَمزِه دونَ أن يُتَّهَمَ بالعُنف، ولا يَستطيعِ الصَّمتَ دونَ أن يَرى قداستَه تُسحَقُ على مسرحِ الضَّحكِ العالميّ.

والهَدفُ من هذا الاستهزاءِ المُمنهجِ يتعدَّى إهانةَ الدِّين، إلى ضربِ الثِّقةِ بالذّاتِ الحضاريّةِ للشُّعوبِ الإسلاميّة. فحينَ يُستهزَأُ بأقدسِ مُقدَّساتِكَ، ويُطلَبُ منكَ أن تَضحَكَ أو تتجاهلَ، فإنَّكَ بالتَّدريجِ تُبرمَجُ على فقدانِ الشُّعورِ بالكرامةِ أمامَ الآخَر، وعلى التَّسليمِ بأنَّ دينَكَ مَسموحٌ بإهانتِه، على حينِ أنَّ غيرَكَ تُصانُ رموزُه بدَساتيرَ وقوانينَ.

وهذا ما يَجعلُ السُّخريّةَ المُعاصرةَ تَختلفُ عن استهزاء الجاهليّة: فالمُستهزئُ في مكّةَ كان واضحَ العَداءِ، وساخرًا في سوقٍ أو مَجلسٍ، أمّا المُستهزئُ المُعاصرُ، فهو جزءٌ من آلةٍ ضَخمة، تُنتِجُ الضَّحِكَ بوَصفِه سِلاحًا ناعمًا، يُقدَّمُ على أنَّه إبداعٌ، ولا يُعلَنُ بوَصفِه حَربًا.

وهنا يَكمنُ الخطرُ الأكبرُ: أنْ تُصبحَ السُّخريّةُ من الدِّينِ جُزءًا من المَنظومةِ العالميّةِ للهَيمنةِ الثَّقافيّةِ، تُمارَسُ عبرَ الفنِّ، والتَّعليم، والإعلام، وصولاً إلى الأنظمةِ السِّياسيّةِ، باعتبارِها اختراقًا مُنظَّمًا للوجدانِ الجمعيّ.

وقد باتَ واضحًا أنَّ بعضَ النُّظمِ الغربيّةِ تَرفضُ تمامًا السُّخريّةَ من رُموزِها الحَداثيّةِ: مثل الهولوكوست، أو المِثليّة، أو العَلمانيّة، وتُجرِّمُ أيَّ انتقادٍ لها، على حين تَفتحُ كلَّ الأبوابِ للتهكُّمِ من الأنبياءِ عليهم السلام والكتبِ السَّماويّةِ والشَّرائعِ الإلهيّة. وهذا التَّناقضُ يَكشفُ أنَّ السُّخريّةَ هي أداةٌ سياسيّةٌ تُستخدَمُ متى خَدَمت الهدفَ، وتُمنَعُ متى اعتُبرت خطرًا على النِّظامِ الرَّمزيّ السّائد.

وبذلكَ، فإنَّ الاستهزاءَ من الدِّينِ، في السِّياقِ الثَّقافيّ الحَديث، تجاوزَ التَّعبيرَ الفرديَّ عن الرَّأي، وأصبحَ مُمارسةً استراتيجيّةً تَهدفُ إلى تَعريةِ الإنسانِ من إيمانِه، بالضَّحِكِ لا بالحججِ، وبإسقاطِ الرَّمزِ لا بالمُواجَهةِ.

والمطلوبُ من المؤمنينَ اليومَ أن يَفهموا البنيةَ العَميقةَ لهذه الحَربِ الرَّمزيّة، ويَبنوا خطابًا يُحصِّنُ رُموزَهُم، ويُعيدُ للدِّينِ حضورَه الثَّقافيَّ بقوّةِ المَفهوم، لا برَدّاتِ الفعلِ، وأنْ يُدركُوا أنَّ الدِّفاعَ عن النبيِّ والقرآنِ ليسَ مَعركةً إعلاميّةً لحظيّةً، وإنَّما هو صِراعٌ طويلٌ في مَن يتحكَّمُ بالرَّمزِ في عصرِ الصُّورةِ والضَّحكِ المُمنهَجِ.

■ المبحث الرّابع:
استراتيجيّات قرآنيّة لمُواجهةِ السُّخريّة المُعاصرة

في مواجهةِ سَيلِ السُّخريّةِ الحَديثة، المُوجَّهةِ ضدَّ الرُّموزِ الدِّينيّة، يقفُ المؤمنُ المعاصرُ أمامَ خيارَينِ مُتعارضَينِ: إمّا الانفعال الغاضب الذي يَنطفِئُ سَريعًا دون أن يُغيِّرَ شيئًا، وإمّا الانهزام الصّامت الذي يَبتلعُ الإهانةَ باسمِ «الانفتاح» و«التَّسامُح». وكلا المَوقفَينِ لا يُعتبران حَلًّا حقيقيًّا في معركةٍ رَمزيّةٍ تتطلَّبُ حِكمةً في المواجهةِ، وعُمقًا في الفَهم، وبصيرةً في الاستجابة.

لكنَّ القرآنَ الكريمَ، الذي واجَهَ السُّخريّةَ منذُ اللَّحظةِ الأولى للبعثة، قدَّمَ توصيفًا دقيقًا لَها، ووَضَعَ منظومةً مُتكاملةً من الاستراتيجيّاتِ التي تصلحُ – برُوحها وأدواتها – لمواجهةِ التَّهكُّمِ المعاصرِ، سواء أكان فرديًّا أم مُمنهَجًا، عَفويًّا أم مُؤسَّسيًّا.

وأوَّلُ هذه الاستراتيجيّات:

١. الاستعلاءُ الإيمانيُّ وثباتُ الهويّة:

قال -تعالى-: ﴿**وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٨ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨].

فحينَ يَضيقُ الصَّدرُ بالسُّخريّة، لا يُطلَبُ من المؤمنِ الانفعالُ أو الردُّ بالمثلِ، وإنَّما يُوجَّهُ إلى التَّسبيحِ والسُّجود، أي إلى تَثبيتِ علاقته بمَصدرِ المَعنى، والتَّشبُّثِ بهويّته الرُّوحيّةِ في وجهِ مَوجاتِ الإهانة. إنَّ الرَدَّ الأوَّليَّ على الاستهزاءِ يكونُ في الدّاخلِ، ويتمثَّلُ في: أنَ تَستعيدَ نفسَكَ، وأن تتجاوزَ الابتذالَ بثَباتِكَ، لا بصُراخِكَ.

٢. كشف البنية الرَّمزيّة للسُّخريّة وتَفكيكُها:

قال تعالى: ﴿**ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا**﴾ [الإسراء: ٤٨].

قابَلَ القرآنُ الكريمُ الأمثالَ السّاخرةَ بكَشفِ زَيفِها، وفكَّكَها بنظرةٍ تَحليليّةٍ هادئة. وهذا يُعلِّمُنا أنَّ المواجَهةَ للسُّخريّةِ الحَديثةِ تكونُ بخطابٍ تَوعويٍّ يُبيِّنُ خلفيّاتِها، ويَكشفُ تناقُضاتِها، ويمَنعُها من السَّيطرةِ على الذِّهنِ العامِّ بآليّاتِ التَّكرارِ والتَّسلية.

٣. الإعراض الواعي لا الهروب السَّلبي:

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ**﴾ [القصص: ٥٥]. وقال أيضًا: ﴿**إِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ**﴾ [الأنعام: ٦٨].

الإعراضُ هنا ليسَ انسحابًا جَبانًا، وإنَّما هو موقفٌ خُلُقِيٌّ يَحرم السُّخريّةَ من غايتِها الأولى: التَّفاعل ورَدّة الفِعل. في عالَمِ التَّواصلِ الحَديث، قد يكونُ عدمُ إعادة نشرِ محتوًى ساخرٍ، أو عدمُ التَّعليقِ عليه، أو الانسحابُ من الجَدلِ المُبتذلِ، أقوى من آلافِ الرُّدودِ التي تُغذِّي التَّهكُّم دونَ قَصدٍ.

٤. بناء الصَّلابة الرَّمزيّة:

قال تعالى: ﴿**إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ**﴾ [الحجر: ٩٥]. تَعني هذه الآيةُ أنَّ اللهَ سيَتولَّى الردَّ، وتُؤسِّسُ لنَمطٍ من الطّمأنينة الرَّمزيّة في ذات النبيّ ﷺ، تمَنحُه مناعةً أمامَ الإهانة، وثقةً بأنَّ المَعنى الذي يَحملُه أكبرُ من أن يُمسَّ بضحكةٍ عابرةٍ أو تهكُّمٍ مُؤقَّت.

ومن هنا، فإنَّ العملَ على بناء صَلابةِ الهويّة، وتَعميق الثِّقة بالنصِّ، وتَحصينِ النَّفسِ من الدّاخلِ، هو أعظمُ ردٍّ على سُخريّةِ الخارجِ.

٥. استعادة الجديّة وسطَ ثقافة العَبث:

قال تعالى: ﴿**قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. في هذا الردِّ القرآنيّ الحازم، يُسحَبُ من السّاخرينَ غطاءُ الدَّعابة، ويُقال لهم بوضوح: ما تَفعلونَه ليس طرفةً، إنَّه خيانةٌ رمزيّةٌ لمَعنى الإيمان. وهنا، يُعلِّمُنا القرآنُ أنَّ الخطابَ الجادَّ، الذي لا يَسمحُ بتَسخيف الرُّموز ولا بتَذويبها في التَّهريج، هو جزءٌ من استراتيجيّة الاستجابة. لا بدَّ من إعادة بناءِ الذَّوق العامِّ على احترام الرُّموز، بمَنع السُّخريّة، وتَفعيلِ الجدِّيةِ بوصفِها قيمةً ثقافيّةً في فضاءٍ تآكلَ فيه كلُّ شيء.

٦. إبداع الخطاب البَديل:

لقد نَهى اللهُ عن قول «راعنا»؛ لأنَّها تحوَّلَت إلى أداةٍ للسُّخريّة، ووَجَّهَ المؤمنينَ إلى استخدام «انظُرْنا» بَدلًا منها [البقرة: ١٠٤]. وهذه إشارةٌ بَليغةٌ إلى أنَّ مواجهةَ السُّخريّة لا تكونُ دائمًا بالمنَع؛ إذ تَحتاج إلى صناعة البَدائلِ الرَّمزيّة النَّقيّة التي لا تَقبلُ التَّحريف. وفي عصرنا، نَحتاج إلى إبداعِ فنونٍ، وصُوَرٍ، وخطاباتٍ، ومحتوياتٍ إعلاميّةٍ تُعيدُ للرُّموزِ حُضورَها الجَماليَّ، وتُنافسُ المُحتوى السّاخرَ بجاذبيّةٍ فكريّةٍ ورُوحيّةٍ راقية.

بهذِه الأدواتِ، لا يَبقى المؤمن مُتلقِّيًا سَلبيًّا أمامَ سُخريّةٍ مُمنهجةٍ؛

لأنَّه يتحوَّلُ إلى فاعلٍ رمزيٍّ يمَتلِكُ البَصيرةَ، والحِكمةَ، والقُدرةَ على مقاومةِ الاستهزاءِ الحَديثِ عبرَ بناءٍ داخليّ، ومَوقفٍ خُلُقيّ، وخطابٍ ثقافيّ واعٍ.

فالقرآنُ يَطلبُ من المؤمنِ أنْ يُبقِيَ للرَّمزِ هيبتَه، وللوَحي مَقامَه، ولنفسِه عزَّتَها، وسطَ عالَمٍ أرادَ تَحويلَ كلِّ شيءٍ إلى طرفة، حتّى اللهِ ورَسولِه.

الفصل الثامن:

نحو وعي قرآني بالمقدّس - تثبيت الرَّمزيّة ومواجهة الاستهزاء

■ المبحث الأوَّل: مفهوم المُقدَّس في القرآن بين الغَيب والرَّمز

يتعاملُ القرآنُ مع المُقدَّس بوَصفه واقعًا رمزيًّا حيًّا يتجسَّدُ في نصوصه، وفي شَريعته، وفي رسالات الأنبياء عليهم السلام المذكورينَ فيه؛ إذ إنَّ المُقدَّسَ في القرآن، إضافةً إلى ما هو وراءَ الحواس، هو حضورٌ معنويٌّ يَتنزَّلُ في الحياة اليَوميّة للمُؤمن، ويُترجَمُ إلى مواقفَ عَمليّةٍ، وأفعالٍ رَمزيّةٍ، وتصوُّرات ذهنيّة.

وإذا كانَ المُقدَّسُ في الفكر الدِّينيّ العامِّ يَرتبطُ غالبًا بالغَيب، فإنَّ القرآنَ يَجعل من هذا الغيب حقيقةً مجسَّدةً في العالَم الذي نَعيش فيه، عبرَ الرُّموز التي تمُثِّلُ الحقيقةَ الإلهيّةَ. فالرُّؤيةُ القرآنيّةُ للمُقدَّس تَقومُ على بناء رمزيٍّ كاملٍ يَتفاعل مع الإنسان في كلِّ لحظة من حياته؛ بحيثُ يَبدو هذا المُقدَّسُ عنصرًا حيويًّا مَعيشًا، يتجدَّدُ في قلب المؤمن ووجدانه.

١. المُقدَّس في القرآن بوَصفه مَرجعيّةً عُليا:

في القرآن، يُطرَحُ المُقدَّسُ بوصفه مَرجعيّةً عُليا لا تُدنِّسُها الأحداثُ العاديّةُ، ولا تُؤثِّرُ فيها الوقائعُ البشريّةُ. وهذا هو الفرقُ بينَ المُقدِّسِ في الدّياناتِ السَّماويةِ وبينَ المُقدَّسِ في التصوُّراتِ الماديّةِ أو الوَثنيّةِ. ففي الدّياناتِ الوَثنيّةِ، غالبًا ما يَرتبطُ المُقدَّسُ بآلهةٍ ماديّةٍ أو تصوُّراتٍ كَونيّةٍ مُتجسِّدةٍ في تَماثيلَ أو كائناتٍ تُعبَد. أمّا في القرآن، فالمُقدَّسُ لا يتجسَّدُ في صورةٍ ماديّةٍ، وإنَّما في فكرةٍ خُلُقيّةٍ ورُوحيّةٍ، تتمثَّلُ في التَّشريعِ الإلهيّ، وفي كلمةِ اللهِ، وفي صُوَرِ الأنبياءِ عليهم السلام.

٢. الرَّمزيّة القرآنيّة للمُقدَّس:

لا يتطلَّبُ المُقدَّسُ القرآنيُّ تصوُّرًا مُجرَّدًا للعَقلِ؛ لأنَّه يَتنزَّلُ في الرَّمزِ الذي يُعبِّرُ عن نفسِه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. فالرُّؤيةُ القرآنيّةُ تُجسِّدُ المُقدَّسَ في رموزٍ واضحةٍ، مثلِ الصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصَّومِ، والحجِّ، ومواقفِ الأنبياءِ عليهم السلام. وهذه الرُّموزُ -فضلاً عن أنَّها شعائرُ دينيّةٌ- هي تَمثيلاتٌ حيّةٌ لحضورِ اللهِ في حياةِ المؤمنِ. لذا، يُمكن القولُ إنَّ القرآنَ يُعيد تَشييدَ المُقدَّسِ داخلَ عالَمِ الإنسانِ الاجتماعيّ، والثَّقافيّ، والعَمليّ. فالصَّلاةُ، على سبيلِ المِثالِ، هي أداةٌ للتَّواصلِ معَ اللهِ، وهي في الوقتِ ذاتِه رمزٌ حيٌّ يَربطُ المؤمنَ بجوهرِ الوجودِ الإلهيّ، ويُعيدُ تَقديسَ اللَّحظةِ التي يتفاعَلُ فيها الإنسانُ مع ربِّه.

٣. المُقدَّسُ ليس تَجريدًا بَعيدًا عن الواقع:

لا يوجدُ في القرآن انفصالٌ بينَ المُقدَّسِ والواقعِ الحياتيّ. فالمُقدَّسُ يَشملُ التَّوجيهاتِ خُلُقيّةَ، والتَّشريعاتِ الدِّينيّةَ، والمَفاهيمَ السُّلوكيّةَ التي تُحدِّدُ طريقةَ تعاملِ المؤمنِ معَ الدُّنيا. ويمُكنُنا أنْ نقولَ إنَّ المُقدَّسَ القرآنيَّ يُعيد تَعريفَ كلِّ شيءٍ، من الحديثِ عن المالِ، إلى القيَمِ خُلُقيّة، وتَنظيمِ العَلاقاتِ الاجتماعيّة. فقد غَدا المُقدَّسُ جُزءًا من إطارٍ عمليّ يُحدِّدُ كيفيّةَ الحياةِ اليَوميّة. بمَعنًى آخرَ، يمتدُّ الرَّمزُ المُقدَّسُ في القرآن ليَشملَ جميعَ جوانبِ الحياةِ الإنسانيّة.

٤. المُقدَّسُ والرُّوحانيّة القرآنيّة:

يَرتبطُ المُقدَّسُ في القرآن بالجانبِ الرُّوحيّ في الإنسان، وفي علاقتِه باللهِ. والمُقدَّسُ هنا هو ما يَرفعُ روحَ الإنسانِ، ويَجعلُه يتأَمَّلُ في مَعاني الحياةِ، ويُنبِّهُ إلى حقيقةِ الوجودِ وما وراءَه. ومن هنا جاء مفهومُ العبادةِ في القرآنِ، مع طبيعته الشَّعائريةِ، وسيلةً لإيقاظِ الرُّوحِ، وتَحريرِها من الانغماسِ في الماديّاتِ.

٥. المقدَّس في مواجهة الاستهزاء:

عندَما يَستهزئُ النّاسُ بالرُّموزِ الدِّينيّة، فإنَّهم يَسخرونَ من الأفعالِ والشَّعائرِ، ومن المَعنى المُقدَّسِ الذي يَرمزُ إليه هذا الفعلُ أو تلكَ الشَّعيرةُ.

ومن هنا، فإنَّ المعركةَ على المُقدَّسِ هي معركةٌ على المَعنى، أي مُحاولةُ تَحييدِ الرَّمزِ عن مكانته العُليا وتَحويله إلى شيءٍ عاديّ أو قابلٍ للسُّخريّة. لذا فإنَّ مُواجهةَ السُّخريّةِ في القرآن تكونُ بإعادة التّأكيد على قَداسة المَعنى، والتَّمسُّكِ بالرُّموزِ، والاعتزازِ بها كونها رموزًا إلهيّةً وحَقيقيّةً.

■ المبحث الثّاني: تَثبيت الرَّمزيّة في الوَعي الجَمعيّ من التَّشريع إلى التَّماثل الرَّمزي

يتميَّزُ الخطابُ القرآنيُّ بقُدرته الاستثنائيّة على تَحويلِ القِيَم الغَيبيّة إلى صُور رَمزيّة مُجسَّدة في الوَعي الجَمعيّ للمُجتمع المؤمن؛ إذ لا يَكتفي القرآنُ بطرحِ مَفاهيم التَّوحيد، والنبوّة، والمَعاد، والعَدل... بصفة أفكار ذهنيّة مُجرَّدة، وإنَّما يُفعِّلُها في حياة الجماعة عبرَ مَنظومة رَمزيّة تُكرِّسُها الشَّعائرُ، والمَواقفُ، واللُّغةُ، والتَّشريعاتُ، والنَّماذجُ التّاريخيّةُ؛ بحيثُ تُصبحُ هذه الرُّموزُ جُزءًا من الذّاكرة الثَّقافيّة المُشتركة التي تَحفظُ الإيمانَ وتَحرسُ مَعناهُ. فالرَّمزيّةُ القرآنيّةُ، كما تعملُ في نطاق التَّعبير، تَعملُ أيضًا في نطاق التَّحويلِ التَّربويّ التَّدريجيّ للفَرد والمُجتمع، من وعيٍ عَفويّ إلى وَعي مُشبَعٍ بالقَداسة، يَرى في بعض الألفاظ، والأماكن، والأفعال، والأشخاص، مواضعَ تَجلٍّ لحضور المَعنى الإلهيّ.

١. التَّشريع بوصفه أداةَ تَثبيتٍ رَمزيّ:

في التصوُّرِ القرآنيّ، التَّشريعُ يَقومُ بوَظيفةٍ تَنظيميّة، كما أنَّه يُرسِّخُ الرَّمزيّةَ في تفاصيلِ الحياة. فالصَّلاةُ هي فِعلٌ تعبُّديٌّ، وهي فوق ذلك تمَثيلٌ رَمزيٌّ لمقامِ العُبوديّةِ أمامَ الله. والزَّكاة أيضًا لا يقتصرُ معناها على نقلِ مالٍ من المُزكِّي إلى المُستحِقِّ، وإنَّما هي صورةٌ رمزيّةٌ لتَطهيرِ النَّفسِ من التعلُّقِ بالماديّات. والصَّومُ الذي يَبدو في ظاهرِه تعذيبًا للجسم هو رمزٌ روحيٌّ للتحرُّرِ من الشَّهوات، والارتفاعِ إلى مقامِ التَّقوى، حتّى الحجّ بكلِّ تفاصيلِه، يمُثِّلُ حركةً رمزيّةً هائلةً تُعيد رَبطَ الإنسانِ بسيرةِ الأنبياء، وتُعيدُ تمَثيلَ لحظاتٍ تاريخيّةٍ غيَّرَت مسارَ الوَحي.

إنَّ هذه التَّشريعات، التي تَنتمي إلى حَقلِ الطّاعةِ والامتثالِ والعبادة، هي في جَوهرِها تَنتمي أيضًا إلى حقلِ الرَّمزيّة، وهي تُعيد تمَثيلَ مَقاماتٍ رُوحيّةٍ عَظيمة، تَحفظُ الذّاكرةَ الإيمانيّةَ من التفكُّك، وتَبني في وجدانِ الأمّةِ إحساسًا دائمًا بالمُقدَّسِ، حاضرًا في كلِّ ركنٍ من أركانِ الحَياة.

٢. الرَّمز النبويُّ: تمَاثُلُ النَّموذجِ واحتضانُ الجَماعة:

الأنبياءُ في القرآنِ هم شَخصيّاتٌ تاريخيّةٌ، وهم أيضًا رموزٌ حيّةٌ تتمثَّلُ بها الجَماعةُ، وتَراهم تمَثيلاً حيًّا لِما يَنبغي أن يكونَ عليه الإنسانُ الكاملُ. فـ (إبراهيمُ) عليه السلام الذي هو أبٌ للتَّوحيد، هو أيضًا رمزٌ للهجرةِ نحوَ اللهِ، والتَّضحيةِ في سبيلِه، وكسرِ الأصنامِ الماديّةِ والرَّمزيّة.

و(مُوسى) عليه السلام هو نبيٌّ، وهو في الوقت ذاته رمزٌ للتحرُّر من الطُّغيان، والمُواجهة بالكلمة، والقيادة في التِّيه. و(النبيُّ محمّدٌ) صلى الله عليه وسلم لا يُقدَّم فقط بوصفه مبلِّغًا، وإنَّما يُقدَّمُ بوصفه رمزًا أعلى للأخلاق، والقُدوة، والرِّسالة الخاتمة التي تمثِّلُ مُجمَلَ الوَحي في صورته المُكتملة.

وهذا التَّمثيلُ لا يَنتهي عندَ الخَبر، فهو يتحوَّلُ إلى نماذجَ قابلةٍ للتَّكرار، ومواقفَ تُعيد الجماعةُ تَفعيلَها في كلِّ جيلٍ، سواء عبر استلهام السِّيرة، أم تقليد الأفعال، أم مُحاكاة المَواقف، أم استحضار الرُّموز في الخطاب والوجدان. وهذا ما يُحوِّلُ الرَّمزَ النبويَّ من مُجرَّد ذِكرى إلى فاعلٍ دائم في بنية الوَعي الجماعيّ، يُقاوِمُ التَّشويهَ، ويَمنحُ الجماعةَ مَناعةً رُوحيّةً في مُواجهة التَّهكُّم.

٣. المُقدَّساتُ المكانيّةُ والزَّمانيّةُ بوصفها أركانًا للذّاكرة الجَماعيّة:

تتجلَّى الرَّمزيّةُ في القرآن أيضًا في المكان والزَّمان:

ليسَت مكّةُ مُجرَّدَ مدينة، وإنَّما هي رمزٌ لوحدة التَّوحيد، ومَركزٌ للجَذب الإيمانيّ، ومُنطلقٌ للرِّسالة الخاتمة.

ويُقدَّمُ المَسجدُ الحرامُ على أنَّه أوَّلُ بيتٍ وُضع للنّاس، فهو ليسَ مكانًا لأداء الصَّلاة فحسب، وإنَّما هو محورٌ رمزيٌّ يَدورُ حولَه العالَمُ الرُّوحيُّ للمُسلم.

وليلةُ القَدر، وعَشرُ ذي الحجّة، ويومُ الجمعة... كلُّها أزمنةٌ مَشحونةٌ بحمولةٍ رَمزيّةٍ تَربطُ الزَّمانَ بالمَعنى، وتَجعلُ من لحظاتِ الزَّمنِ بوابّاتٍ نحوَ الأبديّة.

هذا الحضورُ الرَّمزيُّ للمكان والزَّمان يَحفظُ للمُقدَّسِ مساحتَه في وَعي المُؤمنينَ، ويمَنعُ الواقعَ من ابتلاعِ الغَيبِ، أو من تَحويلِ الدِّينِ إلى مُجرَّدِ فكرةٍ عَقليّةٍ مَنزوعةٍ عن جُذورِها الرَّمزيّة.

٤. اللُّغة القرآنيّة بوَصفها مُولِّدةً للرُّموز:

يُبدِعُ القرآنُ في لغته رُموزًا تتجاوزُ مَعناها القريبَ، لتُصبحَ مَفاتيحَ دلاليّةً تَحمل أبعادًا روحيّةً وتاريخيّةً ونفسيّةً. فكلماتٌ مثل «الفُرقان»، و«الصِّراط المُستقيم»، و«الميزان»، و«الكتاب»، و«الذِّكر»، و«الآية»، و«النُّور»، و«الظُّلمات»، و«العرش»، و«الكوثر»، و«النّاقور»، و«اللَّوح»،... لا تقتصر دلالتُها وإيحاءاتُها على المَعنى المعجميّ، وإنَّما تأخذُ مواقعَ رمزيّةً عميقةً داخلَ الوَعي الدِّينيّ، تُثيرُ الخُشوعَ، أو الرَّهبةَ، أو الرَّجاءَ، أو الصَّدمةَ، أو الأملَ.

هذه الرُّموزُ اللَّفظيّةُ تَعملُ بوَصفِها قوى تَحفيز رَمزيّ، تُبقي المَعنى حيًّا، وتَجعلُ المُؤمنَ يَعيش في فضاءٍ تتكرَّرُ فيه الكلماتُ لا لتُستهلَكَ، وإنَّما لتُعيدَ تَفعيلَ الصِّلة بالغَيبِ في كلِّ مرّةٍ تُتلى فيها.

هكذا نَفهمُ أنَّ القرآنَ لا يُقدِّمُ المُقدَّسَ بوَصفه ثابتًا جامدًا، بل نظامًا رَمزيًّا ديناميكيًّا يتجلَّى في الشَّعائر، والأشخاص، والمَواقف، واللُّغة، والمكان، والزَّمان، ويُبنى في النَّفسِ كما في الجَماعة، وفي الفَردِ كما في الأمّة.

■ المبحث الثّالث:
الحرب على المُقدَّس
من الاستهزاء إلى التَّفكيك الرَّمزي

لم تعدِ الحربُ على الدِّينِ في عصرنا حَربًا لاهوتيّةً صَريحةً كما كانَت في العصورِ السّابقة، ولم تعدْ تُشنُّ بالضَّرورة على صعيدِ النُّصوصِ والمُعتقَداتِ بأسلوبِ التَّنظيرِ المُضادِّ أو المُجادلةِ اللاهوتيّة، وإنّما أصبحَت تُدارُ بمَنهجٍ آخرَ أكثرَ خُطورةً: تَفكيك الرُّموز الدِّينيّة ونَسف حُضورها من داخل الوَعي الجَماعيّ، عبرَ أدواتٍ رَمزيّةٍ حديثةٍ تتخفَّى خلفَ أقنعةِ الفنِّ، والحريّة، والسُّخريّة، والتَّعدُّديّة.

فالحربُ على المُقدَّسِ لم تعدْ تُهاجِمُه بوَصفه نَصًّا قابلاً للنَّقد، وإنَّما بوَصفه رَمزًا يمُكنُ السُّخريّةُ منه، أو تَقليدُه، أو تَسخيفُه، أو تَقديمُه في صورةٍ تُفرغُه من مَعناهُ. إنَّها ليسَت معركةً تأويليّةً كما هي الحالُ في النِّقاشاتِ اللاّهوتيّة، إنَّها معركةٌ رَمزيّةٌ في العُمق، تُوجَّه فيها الضَّرباتُ إلى الصُّورةِ، والتَّمثيلِ، والمَعنى المُتجلِّي في هيئةٍ أو شَعيرةٍ أو لُغةٍ.

١ .مِن نَقدِ النَّصِّ إلى السُّخريّةِ من الرَّمز:

في بدايةِ الحَداثةِ الأوروبيّة، وقعَ الهُجومُ على الدِّينِ بأسلوبٍ نظريّ: نقد العَقيدة، ورفض المُعجزات، ونقد الوَحي. لكنْ معَ صعودِ ما بعدَ

الحَداثة، تراجعَت الجديّةُ في المُواجهة، وظهرَ أسلوبٌ جَديدٌ يَعتمدُ على تَهشيم الرُّموز، لا تَفنيد المَقولات. فلا حاجةَ - مثلاً - إلى نقضِ النبوّة نظريًّا؛ إذ يَكفي أن تُجسَّدَ في صورةٍ مسرحيّة تَسخرُ من النبيّ، أو تُختزَلَ في جانبٍ من سيرته، أو تُعرَضَ بلَقطةٍ مُشوَّهةٍ، لتَنهارَ مكانتُه في وَعي المُتلقّي، دونَ أن يَدريَ كيفَ.

وهذا ما نَراهُ في الأفلام، والبرامج السّاخرة، والرُّسوم الكاريكاتيريّة، و"العُروض الكوميديّة الدِّينيّة" التي تَتناولُ الصَّلاةَ، والقرآنَ، والمَلابسَ الشَّرعيّةَ، والأنبياءَ، وتَجعلُ من ذلكَ مادّةً للضَّحك والتَّجريب، لتحطَّ من مكانتها ورمزيّتها ودلالتها. إنَّها لا تُهاجمُ النصَّ مباشرةً، وإنَّما تضربُ رمزيّتَه، وتُعيدُ تَعريفَه داخلَ المُتلقّي على أنَّه شيءٌ غريبٌ أو ساخرٌ أو عبثيّ.

٢. من تَهشيم الرَّمز إلى إعادة تصويره:

لم تقف الحربُ عندَ السُّخريّة الفرديّة والسَّطحيّة، وإنَّما تطوَّرَت إلى مرحلة أكثرَ خَفاءً: إعادة تَصوير الرُّموز الدِّينيّة بأسلوب يَتماشى مع النَّموذج الثَّقافيِّ الحَديث. فتُقدَّم المَرأةُ المُحجَّبةُ -مثلاً- في الإعلام الحَديث بوَصفها ضحيّةَ تقاليد، أو كائنًا هامشيًّا، أو عنصرًا كوميديًّا، أو نموذجًا قابلاً للتحرُّر إذا تخلَّت عن رَمزها.

وتُعرَضُ الصَّلاةُ على أنَّها مشهدٌ سَريعٌ مُملٌّ، يُقاطَعُ بالتَّنبيهات، أو

يُستخدَم باعتباره لَقطةً ساخرةً حينَ يَركعُ الشَّخصُ في مكانٍ غيرِ مُتوقَّعٍ.
ويُختزَلُ القرآنُ في صُورٍ صَوتيّةٍ تُستعمَلُ في الميمات والدّراما، وفي مشاهدَ غيرِ لائقةٍ أحيانًا، فيُصبحُ الرَّمزُ الدِّينيُّ حاضرًا، لكنْ في سياقٍ مُفرَّغٍ من قُدسيّته.
هذه الآليّةُ الخَطيرةُ لا تَهدِمُ الرَّمزَ، وإنَّما تُعيد تعريفَه من الدّاخلِ؛ بحيثُ يَبقى ظاهريًّا كما هو، لكنْ تُنزَعُ منه رُوحُه، ويُسحَبُ من مركز الهَيبةِ إلى هامشِ الهزل أو التَّوظيفِ المُجتمعيّ العاديّ. وهي آليّةٌ أشدُّ فتكًا من النَّفي المُباشر؛ لأنَّها تَعملُ على المَدى البَعيد، دونَ مُقاومةٍ.

٣. إفراغ الوَعي من الحسِّ الرَّمزي:

من آثارِ هذه الحربِ الرَّمزيّةِ أنَّها تُضعفُ قدرةَ الأفرادِ على الإحساس بالمُقدَّسِ. فالشَّخصُ الذي يُشاهدُ الرَّمزَ الدِّينيَّ يَوميًّا في سياقاتٍ مُضحكةٍ أو هَزليّةٍ، أو حتّى إباحيّةٍ أحيانًا، يَفقد معَ الوقتِ القُدرةَ على التَّفاعلِ معَه بخُشوعٍ أو مَهابة.
ويُصبحُ استحضارُ النبيِّ لا يُحرِّكُ الرُّوحَ، واستماعُ الآياتِ لا يَهزُّ النَّفسَ، والصَّلاةُ لا تُشعرُ بالعَظمة؛ لأنَّ الرُّموزَ تمَّ تَعويمُها وتكرارُها في سياقاتٍ تافهةٍ أو مُبتذَلةٍ، حتى استُهلِكَت مَعانيها الرَّمزيّةَ وتَحوَّلَت إلى صُورٍ باردةٍ لا تُوقِظُ الوجدانَ.

وقد عبَّرَ القرآنُ عن هذا الانحدارِ بقوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ لأنَّ الإعراضَ عن الذِّكرِ يَعني الانغماسَ في عوالمَ رمزيّةٍ بَديلةٍ تُنتِجُ وَعيًا مُشوَّشًا لا يَرى للرَّمزِ قُدسيّةً، ولا للكلمةِ حُرمةً، ولا للمَعنى مَهابةً.

٤. أدوات الحرب الرَّمزيّة: من المَسرحِ إلى الميم

لقد تطوَّرَت أدواتُ الهُجومِ على المُقدَّسِ من الكتبِ والمَقالاتِ إلى أدواتٍ أكثرَ نُفوذًا وانتشارًا:

- المَسرحُ الذي يُعيدُ تمَثيلَ الدِّينِ في قالبٍ تَهكُّمي.
- الفيلمُ الذي يُجسِّدُ شَخصيّاتٍ رَمزيّةً في صُوَرٍ مُنحطّةٍ أو مُسطَّحة.
- الميماتُ التي تضحِكُ من الرُّموزِ عبرَ تكرارِها في سياقاتٍ عَبثيّة.
- الذَّكاءُ الاصطناعيُّ الذي قد يُستخدم في تَوليدِ صُوَرٍ مُزيَّفةٍ للنبيِّ أو للمُقدَّساتِ، في مشاهدَ مُهينةٍ باسمِ "الحريّة التِّقنيّة».
- وسائلُ التَّواصُلِ الاجتماعيّ التي تُنتِجُ جَيشًا من المُشاركينَ الذين يُعيدونَ تَوزيعَ السُّخريّةِ دونَ وَعيٍ، فيُصبحُ المُجتمعُ نفسُه جُزءًا من آلةِ تَفكيكِ الرُّموزِ.

٥. أهداف التَّفكيك الرَّمزيّ: مَحوُ المَرجعيّة:

الغايةُ من هذا المَسار ليسَت فقط إضحاكَ الجمهور، وإنَّما تفريغُ الرُّموز من وظيفتِها المَرجعيّة. فحينَ يُصبحُ النبيُّ شخصيّةً دراميّةً، والقرآنُ كتابًا مَكرورًا، والصَّلاةُ طَقسًا مُملاًّ، يَفقدُ الإنسانُ مصدرَ المَعنى، ويتحوَّلُ الدِّينُ إلى ماضٍ ثقافيٍّ بلا قُدرةٍ على التَّوجيه.

وحينَ تُفكَّكُ الرُّموزُ، يُفكَّكُ معَها الإيمانُ، حتى لو بَقي في اللِّسان؛ لأنَّ الإيمانَ لا يَعيشُ في المُعادلات، وإنَّما يَعيشُ في الصُّور والمَواقف والمَعاني التي تَستقرُّ في وجدانِ الإنسانِ بوصفه حقيقةً أعمقَ من الشَّرح، وأغنى من الحِفظ.

بهذا يتَّضحُ أنَّ الحربَ على المُقدَّس، في العصر الحديث، هي استكمالٌ لمَشروعِ الاستهزاءِ القَديم، بأدواتٍ أكثرَ نعومةً وانتشارًا وفعاليّةً، وهي لا تَسعى إلى الصِّدامِ المباشرِ معَ النصِّ، وإنَّما إلى استنزافِ أثرِه الرَّمزيّ في الوَعي الجَمعيّ.

■ المبحث الرابع: من الدِّفاع العاطفيّ إلى التأسيس الرَّمزيّ استعادة قداسةِ المعنى

تُظهِرُ المَوجاتُ المُتتاليةُ من التَّهكُّم والسُّخريّةِ من الدِّينِ في عصرنا

أنَّ الرُّدودَ العاطفيّةَ لم تعدْ كافيةً؛ لأنَّها في كثيرٍ من الأحيانِ تتحوَّلُ إلى مادّة إضافيّة للضَّحكِ، أو تُصوَّرُ على أنَّها نوعٌ من «الهستيريا الدِّينيّة»، فيُقدَّمُ المُدافِعُ عن النبيِّ في صورةِ غاضبٍ لا يَفهمُ الحريّةَ، كأنَّه كائنٌ رَمزيٌّ آخَرُ يَجب السُّخريّةُ منه هو الآخَر. وهنا تَبرزُ الحاجةُ إلى تحوُّلٍ عَميقٍ في طريقةِ المُواجَهةِ: من الردِّ العاطفيِّ إلى التَّأسيسِ الرَّمزيِّ، ومن الحماسةِ العابرةِ إلى تَرسيخِ الوَعي بالمُقدَّسِ على مُستوى الخِطابِ، والثَّقافةِ، والتَّربيةِ، والتَّمثيلِ العامِّ.

١. خطورةُ الاكتفاءِ بالعاطفة:

لا تَستطيعُ العاطفةُ -رغم ضَرورتِها- في لحظةِ التلقِّي الأوَّلِ للصَّدمةِ أنْ تُؤسِّسَ مُقاومةً طويلةَ المَدى؛ لأنَّ الحربَ الرَّمزيّةَ التي تُشَنُّ على الدِّينِ تَعملُ ببُطءٍ، وبتَكرارٍ، وبلَطافةٍ، وبذكاءٍ دعائيّ، فتَتسلَّلُ إلى الوجدانِ وتُعيدُ تَشكيلَ الذَّوقِ العامِّ على مَدى سنينَ. أمّا الردُّ العاطفيُّ فهو لَحظيٌّ، انفعاليٌّ، يَرتفعُ ثم يَهبطُ، ولا يَصمدُ أمامَ الزَّمنِ، ولا يُنتِجُ وَعيًا بديلًا.

وفي كثيرٍ من الأحيانِ، تكونُ العاطفةُ الدِّينيّةُ غيرَ مُؤطَّرةٍ مَعرفيًّا، فتتحوَّلُ إلى غضبٍ شَعبيٍّ لا يُفرِّقُ بينَ العدوِّ والجَهلِ، وبينَ النَّقدِ المَشروعِ والتَّهكُّمِ المُمنهَجِ، وهذا يُفقِدُها القدرةَ على الاستمرارِ والتَّأثيرِ البَنّاءِ.

٢. الحاجة إلى خطاب رَمزيٍّ مُضادٍّ:

حينَ واجَهَ القرآنُ المُستهزئينَ أعادَ إنتاجَ الخطابِ الرَّمزيّ الذي يُحيي المَعنى، ويُعيدُ تَرسيخَ الرُّموز في الوجدان المؤمن. ففي مُقابلِ مَن قال: «ما لهذا الرَّسول يأكلُ الطَّعامَ»، جاءَ الردُّ بـ: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ**﴾ [الفرقان: ٢٠]، وفي مُقابلِ مَن وصفَ النبيَّ بالجنون، قال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ**﴾ [القلم: ٤].

ليسَ الردُّ هنا انفعاليًّا، إنَّه رَدٌّ تأسيسيٌّ، يُصلِحُ الصُّورةَ، ويُعيدُ بناءَ الرَّمزِ في وَعي النّاسِ، ويُرسِّخُ قدسيّتَه ببيانٍ جَوهريٍّ لا بانفعالٍ غاضب.

ولذا، فإنَّ مواجهةَ السُّخريّةِ المُعاصِرةِ تَحتاجُ إلى خطابٍ رَمزيٍّ يُعيدُ للرُّموزِ المُهانةِ حضورَها، بالدِّفاعِ عنها، وإعادةِ تَمثيلِها في صورةٍ جذّابةٍ، واثقةٍ، نَقيّةٍ، قويّةٍ، غيرِ قابلةٍ للتَّسخيف. فلا يَكفي أن نَمنعَ السُّخريّةَ، وإنَّما الواجبُ أن نُنتِجَ رُموزًا قويّةً تَحمي نفسَها بالمَعنى، وتَفرضُ احترامَها بعُمقِ حُضورِها في الحياة العامّة.

٣. التَّمثيل الرَّمزيُّ في الثَّقافة الإسلاميّة:

لعلَّ أحدَ أسبابِ نجاحِ السُّخريّةِ المُعاصرةِ هو غيابُ التَّمثيلِ الجادِّ للرُّموزِ الإسلاميّةِ في الثَّقافةِ المُعاصرةِ. فعلى مُستوى الصُّورةِ، لا نجدُ تَمثيلاً فنيًّا عَميقًا يُعيدُ تَقديمَ النبيِّ، أو القرآنِ، أو الصَّلاةِ، أو السِّيرةِ،

بوَصفِها رُموزًا راقيةً تُحرِّكُ الإعجابَ والرَّهبةَ معًا.

وعلى العكسِ، نجدُ أعمالًا فنيّةً تُركِّزُ على مظاهرَ سَطحيّةٍ، أو تَعرِضُ الرُّموزَ الدِّينيّةَ في سياقٍ خانقٍ أو نَمطيٍّ أو تَقليديّ، وهذا يَجعلُها هَدفًا سَهلًا للتهكُّم. لذلكَ، فإنَّ التأسيسَ الرَّمزيَّ يَمرُّ عبرَ الفكرِ، والفنِّ، والتَّعليم، والمشهدِ العامِّ، والمَضمونِ الرَّقميّ، والتربيةِ، حتّى في أسلوبِ الحياةِ اليَوميّةِ. وهذا يَقتضي أن يُربَّى الجيلُ على التَّعاملِ معَ الرُّموزِ الدِّينيّةِ بوَصفِها "مُحرَّمات لا تُمسّ"، وبوَصفِها مَفاتيحَ وُجوديّةً كُبرى، تُغني الرُّوحَ، وتُنيرُ العَقلَ، وتَبني علاقةً حقيقيّةً بينَ الإنسانِ والمُطلَق.

٤. تربية الذَّوق الرَّمزيّ لا المَنع القانونيّ:

حينَ يُساءُ إلى رمزٍ دينيٍّ، فإنَّ أوَّلَ ما يُطالَبُ به النّاسُ هو الحَظرُ أو العُقوبةُ. وهذا قد يكونُ ضَروريًّا في بعضِ السِّياقات، لكنَّه ليسَ كافيًا أبدًا لبناءِ حسٍّ رَمزيٍّ حَقيقيّ. فالقوانينُ قد تَمنعُ التَّهكُّمَ، لكنَّها لا تُنتِجُ مَهابةً ولا تُقيمُ قداسةً.

الذي يَبني الاحترامَ الرَّمزيَّ هو الذَّوقُ التَّربويُّ، والمناخُ الثَّقافيُّ، والرُّؤيةُ المُتكاملةُ للرُّموزِ بوَصفِها لغةً تكلَّمَ بها الوَحيُ مع الإنسان.

وهنا، تَبرُزُ ضرورةُ إدخالِ الرَّمزِ الدِّينيِّ في التَّعليم، بوَصفِه مَركزًا للمَعنى، لا مادّةً للحفظِ فقط، وإعادةِ حضورِ الرُّموزِ في الفنِّ والإعلامِ برُوحٍ جَماليّةٍ خُلُقيّةٍ عاليةٍ تُعيدُ لها بهاءَها المَفقودَ.

٥. من قداسة الدِّفاع إلى قداسة الحضور:

إنَّ استعادةَ قداسة المَعنى لا تحصلُ فقط بالهجوم على السّاخرِ، وإنمَّا تَحصلُ بجَعلِ الرَّمز في ذاته قويًّا بما يَكفي ليَصمُدَ أمامَ التَّشويه. فالنبيُّ ﷺ الذي نُحبُّه لا تكونُ نُصرتُه بالغَضبِ والسَّيف فقط، وإنمَّا بخطابٍ يُعيد رسمَ صورته في خيال الأجيال، بوَصفه القائدَ، والمُلهِمَ، والرَّمزَ الأعلى للرَّحمة والعَدالة والحريّة والنبوّة.

والقرآنُ يُدافعُ عنه بتعرية التَّهكُّم والسُّخرية، إضافةً إلى جعلِ حُضوره في حياة النّاسِ جَماليًّا، وَظيفيًّا، شُعوريًّا، ومَعرفيًّا.

وعندَها، لن تكونَ السُّخريّةُ قادرةً على تَحريكه من مكانه؛ لأنَّ مكانَه لن يُكتسَبَ بقَرارٍ، وإنمَّا سيُحفَرُ في قلوبِ النّاسِ بمَحبّةٍ راسخةٍ وإدراكٍ عَميقٍ لمَعناهُ.

بهذا نَختمُ هذا الفصلَ التأسيسيَّ الذي يُعيدُ صياغةَ مَعركة الاستهزاء، بوصفِها مَعركةً تتجاوزُ رَدَّ الفعلِ إلى مواجهةٍ رمزيّة طويلة المَدى تتطلَّبُ وَعيًا جديدًا بالمُقدَّس، وقُدرةً على بناء خطابٍ مُتجدِّد، لا يَنكسرُ أمامَ الضَّحكِ، ولا يَهتزُّ أمامَ العَبثِ، ويَسمو فوق ذلكَ بالمَهابةِ والمَعنى.

الخاتمة

لم تكنِ السُّخريّةُ، كما بيَّنَ لنا القرآنُ، مُجرَّدَ انفعالٍ لحظيٍّ، ولا صَوتًا هامشيًّا في مواجهةِ الرِّسالة، وإنَّما كانَت دَومًا أحدَ أخطرِ أسلحةِ الحربِ النَّفسيّةِ والرَّمزيّةِ على النبوّةِ والوَحي والمُقدَّس. كانَت تَهدفُ إلى ما هو أعمقُ من الإهانةِ الشَّخصيّةِ أو الاحتقارِ الظّاهريّ: تفريغِ المَعنى، وإزاحةِ الرَّمز، وكسرِ الجديّة، ونسفِ العلاقةِ بينَ الإنسانِ والسَّماء.

في كلِّ عصرٍ، أعادَ المُستهزئونَ إنتاجَ أدواتِهم، وتلوَّنَت سُخريّتَهم بألوانِ الأزمنة: من الضَّحكِ الجَماعيّ في مجالسِ قريش، والتَّشكيكِ بالنبيّ ﷺ عبرَ الألقابِ المُهينة، والتَّجاهلِ المُبطَّنِ في وجهِ رسالةِ (مُوسى) عليه السلام و(عيسى) عليه السلام، وحَملاتِ السُّخريّةِ الثَّقافيّةِ في الصَّحافةِ والفنِّ والإعلامِ في العَصرِ الحَديث، وتَفكيكِ الرُّموزِ في الفضاءِ الرّقمي، وصولًا إلى تحويلِ السُّخريّةِ نفسِها إلى خطابٍ ناعمٍ يُضحِكُ ويُشوِّهُ ويُعيدُ تشكيلَ الوَعي دونَ مُقاومة.

لقد خاضَ القرآنُ هذه المعركةَ من أوَّلِ آيةٍ حتّى آخرِ سورة، وتعامَلَ معَ السّاخرينَ بوصفِهم فئةً نمطيّةً رمزيّةً تتبنَّى خطابًا مُعاديًا للوَحي، وتَحتاجُ إلى قراءةٍ نفسيّة، وخطابيّة، وتاريخيّة، وتأويليّةٍ عَميقة. وقد كشفَ لنا أنَّ الاستهزاءَ قد يكونُ عدوًّا ظاهرًا، وقد يكونُ قريبًا، دافئًا، مُغلَّفًا بالحكمةِ السّاخرة، أو النَّقدِ اللاّذعِ، أو "الفنِّ"، أو "الحريّة". لكنَّه،

في جَوهرِه، حربٌ على المُقدَّسِ، وتَحقيرٌ لمَصدرِ المَعنى، ومُحاولةٌ لهَدمِ جسورِ العلاقةِ بينَ الإنسانِ والسَّماءِ.

ومع تكرارِ مَوجاتِ السُّخريّةِ، من الصُّورِ الكاريكاتيريّةِ، إلى المقاطعِ السّاخرةِ، والأعمالِ الفنيّةِ التي تُهينُ المُقدَّساتِ، باتَ واضحًا أنَّ الدِّفاعَ العاطفيَّ لم يعدْ كافيًا؛ حيثُ نَحتاجُ إلى ما هو أبعَدُ من الغَضبِ: إلى وعيٍ رَمزيٍّ جديدٍ يَبني مَنظومةَ دفاعٍ ثقافيّ، تُعيدُ للرُّموزِ الإسلاميّةِ مَهابتَها من الدّاخلِ، وليسَ فقط عبرَ الاحتجاجِ من الخارجِ. وهذا ما حاولَ هذا الكتابُ تقديمَه: مقاربة قرآنيّة عَميقة لبنيةِ السُّخريّة، وجذورِها، ووظائفِها، وتحوُّلاتِها، ثم استراتيجيّات مُواجهتِها من منطق الوَحي ذاته.

الرَّمزُ في القرآن ليس تَرفًا بلاغيًّا، وإنَّما هو بنيةٌ وجوديّةٌ تحفظُ المَعنى، وتُرشدُ السُّلوكَ، وتُقيم الصِّلةَ بينَ الغَيب والشَّهادة. وكلَّما انهارَ الرَّمزُ في وجدان الأمة، انفتحَ البابُ للعَبث، والضَّياع، والتِّيه؛ لأنَّ الرَّمزَ لا يقتصرُ على ما نَراهُ، وإنَّما يشملُ ما نُصدِّقُ به دونَ أن نَراهُ.

في مواجهةِ الاستهزاء، عَلينا أنْ نَخرُجَ من منطق "ردِّ الفعلِ" إلى منطق "بناءِ الفعلِ"، وأنْ نَزرعَ في الأجيالِ حسًّا جَماليًّا وقُدسيًّا ورَمزيًّا يُحصِّنُها من الابتذال، ويَجعلُها تقفُ بثقةٍ أمامَ ضَجيجِ السّاخرينَ، دونَ أن تتشظَّى أو تنكسَّر.

فالمَعركةُ ليسَت على النبوّة فقط، وإنَّما على قابليّةِ الإنسانِ نفسِه لأنْ

يُؤمِنَ، وأنْ يتقدَّسَ، وأنْ يَعلُوَ. ولهذا، فإنَّ الدِّفاعَ عن الرَّمزِ لا يَنفصِلُ عن الدِّفاعِ عن المَعنى، وعن الإنسانِ، وعن الله في قَلبِ العالَمِ.

وهكذا، حين تُطلَقُ نكتةٌ، أو تُنشَرُ صورةٌ، أو يُقالُ تَعليقٌ ساخرٌ، فيَنبغي أنْ يكونَ ردُّنا بناءً يَبدأُ، لا صَرخةً تَنتهي.

لأنَّ استعادةَ قداسةِ المَعنى لا تكون بكَثرةِ الرُّدودِ، وإنَّما بقُدرةِ الرَّمزِ على الصُّمودِ، واستعادةِ حضورِه في النُّفوسِ بوَصفِه طَريقًا إلى المُطلَقِ، لا مادّةً للعَبث.

ومن هنا، يُغلقُ هذا الكتابُ صَفحاتِه بوَصفِه بدايةً لرُؤيةٍ قرآنيّةٍ شاملةٍ، تُؤمِنُ أنَّ الصِّراعَ الرَّمزيَّ ليس حادثًا جانبيًّا، وإنَّما هو أحدُ مَفاتيحِ النَّصرِ أو الهَزيمةِ في مَعركةِ الإنسانِ الكُبرى: مَعركةِ الوَعي.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأوَّل: مفهوم الاستهزاء في النصِّ القرآنيّ ١٣

١٥ | المبحث الأوَّل: المعنى اللُّغويّ والقرآنيّ للاستهزاء

٢٠ | المبحث الثاني: الاستهزاءُ بوَصفِه آليةَ رفضٍ رمزيّة

٢٤ | المبحث الثالث: الاستهزاءُ بوَصفِه خطابًا مُضادًّا للوَحي

٢٩ | بحث الرابع: الوظيفة النَّفسيّة والاجتماعيّة للاستهزاءِ في المجتمع الجاهليّ

الفصل الثاني: البِنيةُ النَّفسيّةُ والعَقليّةُ للمُستهزِئ ٣٥

٣٧ | المبحث الأول: الاستكبار والعُجبُ بالنَّفس

٤١ | المبحث الثاني: الخوف من فقدان السَّيطرة والهَيبة

٤٥ | المبحث الثالث: ضعف البَصيرةِ وسخريّةُ الجاهلينَ

٤٩ | المبحث الرابع: التهكّم بوَصفِه آليّةَ دفاعٍ نفسيّ

الفصل الثالث: المُستهزِئونَ في قصص الأنبياء ٥٣

٥٥ | المبحث الأول: سُخريّة قوم (نوح) عليه السلام الضَّحك من السَّفينة والتَّكذيب الجماعيّ

٥٨ | المبحث الثاني: التهكُّم على (هود) و(صالح) و(شعيب) عليهم السلام رفض التَّوحيد عبر السُّخريّة

٦١ | المبحث الثالث: استهزاء (فرعونَ) من (موسى) عليه السلام الكلمة ضدَّ الطُّغيان

٦١ | المبحث الرابع: استهزاء بني إسرائيل من التلكُّؤ إلى التهكُّم

٦١ | المبحث الخامس: استهزاء (قريش) بـ (النَّبيّ محمّد) عليه السلام من الرَّمز إلى الشَّخص

الفصل الرّابع: أدوات الاستهزاء في القرآن الكريم ٧٣

٧٥ | المبحث الأول: السُّخريّة من الشَّخصِ والهَيئة واللِّباس

٧٨ | المبحث الثاني: الطُّرفة السّاخرة والإيحاءات الرَّمزيّة

٨٢ | المبحث الثالث: التَّهكُّم العلنيُّ والمَنابرُ المُجتمعيّة

٨٥ | المبحث الرابع: التَّحريف الرَّمزيُّ للكلمات والشِّعارات

الفصل الخامس: الردُّ القرآنيُّ على المُستهزئين ٨٩

٩٢ | المبحث الأول: الصَّبرُ والاحتساب

٩٤ | المبحث الثاني: الردُّ بالحجّةِ والبرهانِ

٩٨ | المبحث الثالث: العقاب الرَّبانيُّ

١٠١ | المبحث الرابع: تَحويل الاستهزاءِ إلى حسرة يوم القيامة

الفصل السادس: الاستهزاء أداةُ إفسادٍ رمزيّ ١٠٥

١٠٧ | المبحث الأوَّل: تَحطيم قداسةِ الرَّمز الإيمانيّ

١١١ | المبحث الثاني: تَشويهُ صورة النبيّ والوحي

١١٤ | المبحث الثالث: إشاعة الضَّحك بدلَ التفكُّر

١١٧ | المبحث الرابع: المُستهزئُ بوَصفِه أداةً شيطانيّةً

الفصل السابع: السُّخريّة الحديثة - حرب الرُّموز في العصر الرَّقمي ١٢١

١٢٣ | المبحث الأوَّل: السُّخريّة من الرُّموز الدِّينيّة في الإعلام والثَّقافة

١٢٦ | المبحث الثاني: مواقع التَّواصلِ بوصفِها مسرحَ استهزاءٍ جماهيريّ

١٣٠ | المبحث الثالث: الاستهزاء المُمنهجُ في سياسات الهَيمنة الثَّقافية

١٣٣ | المبحث الرّابع: استراتيجيّات قرآنيّة لمُواجهةِ السُّخريّة المُعاصرة

الفصل الثامن: نحو وعي قرآني بالمقدّس - تثبيت الرَّمزيّة ومواجهة الاستهزاء ١٣٩

١٤١ | المبحث الأوَّل: مفهوم المُقدَّس في القرآن

١٤٤ | المبحث الثّاني: تَثبيت الرَّمزيّةِ في الوَعي الجَمعيّ

١٤٨ | المبحث الثّالث: الحرب على المُقدَّس

١٥٢ | المبحث الرابع: من الدِّفاع العاطفيّ إلى التأسيس الرَّمزيّ

الخاتمة ١٥٧

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

عن هذا الكتاب

في زمنٍ تتسـلَّلُ فيه السُّـخريّةُ من الرُّموز الدِّينيّةِ إلى كلِّ شاشةٍ وصَفحةٍ ومَشهد، يُقدِّمُ هـذا الكتابُ قـراءةً قرآنيّةً عَميقـةً لظاهرةِ الاسـتهزاءِ، تتجاوزُ ردَّ الفِعـلِ العاطفيّ إلى تفكيكِ البنيةِ النَّفسيّةِ والرَّمزيّةِ والثَّقافيّةِ لهذا الخطابِ التَّهكُّميّ، قديمًا وحديثًا.

بين سُـخريّةِ الجاهليّـةِ، التي واجهَتِ الأنبياءَ، ومَوجاتِ التَّهكُّـمِ المُمنهَجِ في الإعلامِ الحَديث ومواقعِ التَّواصلِ، يَرسمُ الكتابُ خارطةَ المُواجهةِ كما يَكشِفُها النصُّ القرآنيُّ: من حكمةِ الرَّدّ، إلى عُمقِ الرَّمز، إلى استعادةِ قداسةِ المَعنى.

هـذا ليسَ كتابًا عن الغضبِ والانفِعال، وإنَّما هو كتابٌ عن المَعنى الذي يُهانُ باسـمِ الضَّحـكِ، والرُّموزِ التي تُفرَّغَ من رمزيّتِها باسـمِ الحريّةِ، والقَداسـةِ التي تتآكلُ تحتَ ضَغطِ التَّهكُّمِ اليَوميّ.

إنَّـه دعوةٌ لتَحصينِ الوَعي، واسـتعادةِ العَلاقةِ مـعَ المُقدَّسِ كما أرادَهـا القرآنُ: ثابتةً، مُتجاوزةً، عَصِيّةً على الابتذالِ.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد